

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

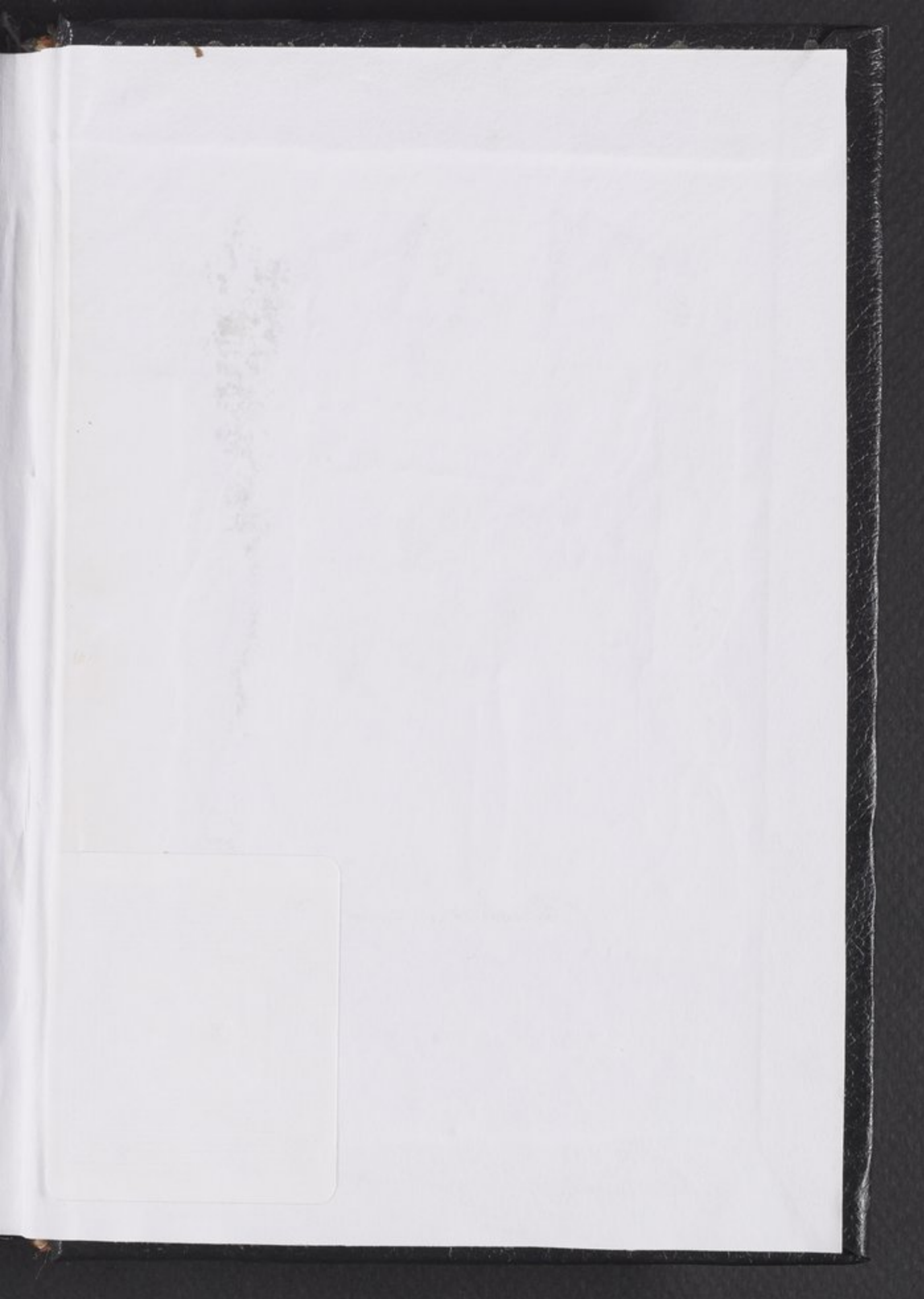


3 8534 01861 6627

P
75
.
1







محمود تيمور



PJ
7538
T3
1950

ملاحج و غرضون

صور غاظة لشخصيات لامعة

الناشر مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة الأولى
١٩٥٠

9C1
v. 25



~~892.73~~
~~T 487 C~~

Biography

31508

صور خاتمة
لشخصيات المعاصرة

الطبعة الأولى — ١٩٥٥
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

استقبال

لحضرة صاحب المعالي الدكتور طه حسين بك

الكلمة التي أرتجلها حضرة صاحب المعالي الدكتور طه حسين بك وزير المعارف وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية في استقبال «محمود تيمور بك» بمناسبة تعيينه عضواً بالمجمع، وذلك في الجلسة العلنية التي عقدها المجمع يوم الخميس ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٠

سيدي صاحب المعالي رئيس المجمع .

سيدي الزميل العزيز الجديد :

إنني لسعيدٌ كلَّ السعادة بأن أنوبَ عن مجتمعنا في استقبالك ، بعد أن أظهر أعضاؤه حرصهم على أن تكون بينهم ، وعلى أن تشاركهم فيما يبذلون من جهد لصيانة اللغة العربية والمحافظة على سلامتها ، وتمكينها من أن تكون منتجة ملائمة لمقتضيات الحياة على اختلاف عصورها .

فأنت تعلم أن المجمع ليس نظاماً مقصوراً على عصر دون عصر ، وإنما هو نظام خالد ما خلدت « مصر » ، وكل واحد من أعضائه إنما استعار من خلود هذا النظام لقبه الذي عُرف به المجمعيون في « فرنسا » وهو لقب « الخالد » . فنحن إنما نخلدُ بخلود هذا النظام الذي أنشئ ليقتنى ما بقيت « مصر » ، وما بقيت اللغة العربية .

وأنت منذ اليوم قد أقبلت لتشاركننا في هذا الجهد ، ولتشاركننا في تمكين هذا النظام من الإنتاج . وقد أنابنى المجمع ، ووكّل إليّ الرئيس ، أن أهدي إليك لقب المجمعين ، فتصبح خالدًا من الخالدين . وصدّقني أيها الزميل العزيز إنك لم تكن في حاجة إلى هذا الخلود المستعار ، فقد اتخذت لنفسك من جهدك وخصب ذهنك ونضج عقلك وذكاء قلبك وإنتاجك الرائع المبدع خلودًا أبقي وأشمل وأخصّ من هذا الخلود الذي لا ينكسبه من أنفسنا ، وإنما نستعيره استعارة من عمل يبقى هو ونزول نحن . فأما أنت فإن الخلود الذي اكتسبته لنفسك يبقى مهمًا تكن الظروف ، ومهما تكن الأحوال ، سواء اتصلت بالمجمع أم لم تتصل به . وأنت تعلم أن في المجمعين شيئًا غير قليل من الفضول ، وأن فيهم كذلك شيئًا غير قليل من هذه الخصلة التي يحبها الأقلون ويُبغضها الأكثرون وهي خصلة البحث والاستقصاء . فليس كل الناس يحب البحث ، وليس كل الناس يستظرف الاستقصاء ، وإنما هي خصلة موقوفة على قوم شذّوا في الحياة الاجتماعية ، كرّسوا أنفسهم للبحث والدرس ولاستكشاف الحقيقة والتماسها حيث تكون . وهم من أجل ذلك يكلفون أنفسهم من الجهد ما يكلفونها ، ويتعرضون لكثير من العبث ولـكثير من الشخيرة أحيانًا . وقد امتحنت لكي تكون بين هؤلاء الناس ، فاحتمل هذا

الامتحان صابراً ، ولك أجر المَعْدَّ بين الممتَحِنين .

وأول ما يُفَرِّضُ عليَّ هذا الموقف حين أَسْتَقْبَلُكَ ، هو أن أخرج عن مألوف أوضاعنا الاجتماعية ، فأَتحدَّثَ إليك بما تعلم وبما لا تعلم من أمرك ، وأُظهِرَكَ على أشياء لعلك كنت تعرفها ، وعلى أشياء أخرى لعلك لم تلتفت إليها ولم تقف عندها . وأظن أنك لا تعرف أنك قد نشأت في أسرة كريمة كل السكرم ، عزيزة كل العزة ، لها سابقة في المجد ، ولها سابقة بنوع خاص في حبِّ الأدب والعلم والبحث والإنتاج ، والتفوق في هذه كلها .

أقبل جدَّكم مع محمد علي ، الكبير ، وشارك فيما شارك فيه معاصرو ذلك البطل العظيم من احتمال الخطوب ومواجهة المِحَن والنفوذ من المشكلات ، فكان جندياً ، وكان قائداً في الجيش ، وكان مستشاراً للأمير ، وكان مديراً لشئون بعض الأقاليم ، وأسس لنفسه ولأسرته من بعده هذا المجد الذي توارثه عنه أبناؤه ، والذي وفَّوْا في توارثه والقيام عليه .

ولأمر ما أَحَبَّتْ العلم والأدب أُسْرَتُكَ منذ استقرت في مصر . . فجدُّك وإسماعيل تيمور ، كان محبباً للعلم : مِمَّا لا أشد الميل إلى العزلة ، حريصاً كل الحرص على أن يقرأ ويبحث ويستقصي ، مؤثراً صُحبة السكِّتاب على صحبة السكِّبراء والأمراء ، لا يكاد يلبس من صِبِّ الحكم إلا حين يُستكره عليه استكراهاها ، ولا يكاد يبلغ

هذا المنصب بعد الجهد حتى يحتمل ليخرج منه ويعود إلى كتبه .
ووالدك العظيم « أحمد تيمور » ليس في حاجة إلى أن نذكر مكانه في الأدب ، ومكانه في العلم . وفي المعرفة باللغة العربية وتاريخها وتطورها ، وما كتبت حول تاريخها وحول تطورها منذ أقدم العصور .

ولعلك تعلم أو لا تعلم أن المكتبة التي ورثها أبوك العظيم عن والده ، ثم نَمَّأها وقواها وزاد فيها ، هي ثلاثة مكتبات ثلاث : دار الكتب المصرية ، والمكتبة الأزهرية . ومكتبة « تيمور » . وهي عدا ذلك قد تمتاز بمجموعة من المخطوطات القيِّمة ليست في هذه المكتبة أو في تلك .

كان إذن محبًّا للكتاب . ثم كان لا يكتفي بهذا الحب الظاهر الرفيق ، وإنما يحب ويريد أن يزدرد ما يحبه ازدرادا ، فكان لا تصل يده إلى كتاب إلا قرأه وأعاد قراءته واستخلص منه ثمرة وخلاصته . ورث كثيرا من ذلك عن أبيه ، وأضاف إلى ما ورث بجهده وكده ومواهبه الخاصة شيئا كثيرا .

وعَمَّتْكَ سِبْغَتُ إلى مجد أدبي خالد . فليس بين المثقفين في الشرق العربي بل في الشرق كله من يجمل عائشة التيمورية ، ومن يجمل أثرها في الشعر العربي والتركي والفارسي .

فأنت إذن سليل هذه الأسرة التي اشأت في العلم والأدب والمجد

جميعاً . ألفت هذه كلها وألفتك ، فليست غريبة عليك ولست غريباً عليها .

والغريب في هذا كله أن هذا التراث الكريم لم يقتصر نقله على فرد من أفراد الأسرة دون سائر أفرادها ، لم يستبد به أبوك حين ورثه عن أبيه ، وإنما شاركته فيه أخته ، عائشة ، مشاركة ممتازة . ولم تستبد أنت به حين ورثته عن أبيك ، وإنما شاركك فيه أخواك « إسماعيل تيمور ، و « محمد تيمور » . وشاركك « محمد تيمور » مشاركة لا أقول ممتازة وإنما أقول رائعة ، ولعله سبقك إلى هذه المشاركة . كنتما شريكين في حب الأدب والبحث والدرس والإنتاج ، ولكنه سبقك إلى التفوق والامتياز ، وعسى أن يكون قد وجهك التوجيه الذي أناح لك ما بلغت الآن من نُضج وتفوق ونبوغ .

والجيل المصري الحديث لا يستطيع أن ينسى فضل أخيك على التمثيل ، ممثلاً أولاً وكاتباً وممثلاً بعد ذلك ، ثم كاتباً يكرس جهده للإنتاج للفن آخر الأمر ، يكتب في اللغة العربية الفصحى ويكتب في اللغة العربية العامية ، ولا يكاد يكتب ولا يكاد الناس يسمعون بعض ما يكتب حتى يصل إلى قلوبهم كما يصل الفاتح إلى المدينة التي يقهرها فيستأثر بها الاستئثار كله .
وأكاد أخشى عليك من كل هذا المجد ، وأكاد أشفق عليك

من كل هذا التراث الضخم الثقيل . فقد يُخَيَّل إلى الذين لا يستقصون ولا يتعمقون الأشياء كما يفعل الجمعيون أنك في هذا إنما حَفِظْتَ ما أَحْفَظَكَ أو ما أورثك آباؤك وأخوك ، ولم تسكد تجدّد شيئاً ، فمن الجائز ألاّ ^{ميسستغرب} أن تكون نابغة ممتازة ، فقد أزهرت ونشأت وشببت في أسرة نابغة ممتازة .

ولكن نحن الذين نؤثر التعمق والبحث لا نكاد ننظر إلى شيء يسير من آثارك الكثيرة حتى نستيقن أنك قد تفوقت على هذه الأسرة الممتازة كلها . أخذتَ خيرَ ما عندها ، وأضفتَ إليها ما لم تستطعَ هي أن تصل إليه .

شارك أبوك في العلم وفي جمع الآثار العلمية القيمة وقراءتها وتدوئها ، وهذه كلها من الخصال السكرية الرائعة . ولسكنك توافقني على أن الذين يشاركون أباك في هذا كثيرون في شرق الأرض وغربها وسبق أخوك إلى الإجابة في التمثيل ، ولسكنك توافقني على أن الذين أجادوا في التمثيل ليسوا قليلين .

وسبقتَ أنتَ إلى شيء لا أعرف أن أحدا شاركك فيه في الشرق العربيّ كله إلى الآن ، وإذا ذهب أحدٌ مذهبك أوجاه أحدٌ فيما بعدُ بخير مما جئتَ به ، فلن يستطيع أن يتفوق عليك ، لأنك فتحتَ له الباب ، ومهدتَ له الطريق ، ويسرّتَ له السعي ، وأتحتَ له أن ينتج وأن يمتاز وأن يتفوق .

هذا الذى تفوقت فيه وامتزت وسجلت به لنفسك خلودا
فى تاريخ الأدب العربى لا سبيل إلى أن يُمحى ، هو القصص
على مذهبه الحديث فى العالم الغربى .

ولست أدري ما الذى كان بينك وبين القصص من هذا الحب
الغريب ، فقد كنت فى صباك أولا مشغوبا بقراءته ، حريصا على
أن تُمنحى بياض يومك وسواد ليلك فى « ألف ليلة وليلة » ،
تكاد تؤثر ذلك على الدرس المنظم الرسمى . ولم تسكد تتعلم اللغة
الاجنبية حتى التمت القصص فى هذه اللغة التى تعلمتها .

ثم لم تسكد تباه من الثقافة حظا يتيح لك التوسّع فى القراءة
حتى أسرع إلى الآداب القصصية فى اللغات الاجنبية على
اختلافها . فقرأت القصص الفرنسى ، وقرأت القصص الروسى ،
وقرأت من القصص الالماني والانجليزى غير قليل . عشت للقصص ،
وكاد القصص أن يعيش لك فى « مصر » ، وامتزجت بالقصص ،
حتى كدت تُصبح قصة !

ومن الناس من يحب القصص ويعكف عليها وينفق عمره
فيها ، يريد أن يأخذ منها ما يستطيع دون أن يقدر على أن يرد
بعض ما أخذ أو يعطى بعض ما استعار .

ولكنك لم تكن من هؤلاء . لم تكن تحب القصص لتأخذ
فحسب ، وإنما كنت تحب القصص لتأخذ ثم تقلد ، ثم تلمس

شخصيتك ، ثم تظفر بها ، ثم تنتج فتملاً والشرق والغرب
أدبا وحكمة وفقها لشئون الحياة ، كأروع ما يكون الأدب
والحكمة والفقه في شئون الحياة .

فأدبك ليس مقصورا على « مصر » ، ولا هو مقصور على البلاد
العربية وحدها ، ولكنه تجاوز حدود « مصر » ، ثم ضاقت به
حدود البلاد العربية ، فعبّر البحر إلى أقطار مختلفة من « أوربا » .
تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية ، وأحسب أنك تُرجمت
إلى اللغة الروسية أيضا .

فإذا قيل إنك أديب مصرى ففي ذلك غرض منك ، وإذا قيل
إنك أديب عربى ففي ذلك تقصير في ذاتك ، وإنك تُوفى حقك
إذا قيل إنك أديب عالمى بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها وأعمقها
إنك حين قصدت إلى القصص ، أحبت أول ما أحبت
هذا القصص العربى الشعبى اليسير الذى يتحدث عن القلوب
وعن الطبائع وعن الأذواق المصنفة في غير مشقة ولا تكلف
ولاعناء . هذا الأدب اليسير الذى تزدريه الخاصة المثقفة في البلاد العربية
وتهوى إليه قلوب العامة فتسكون منه أذواقها وتسكون منه شعورها .
وقد أحبت هذا الأدب كما تحبه العامة ، أخلصت له وأخلص
لك ، وكدت تكون عاميا في حبك له ، وكلّفك به .
وليس هذا غريبا ، فإنك حين حاولت أن تكتب القصص ،

وتصبح منتيجا بعد أن كنت مستهلكا ، كان التعبير على هذا المنهج العامي اليسير البسيط هو أول ما قصدت إليه ونجحت فيه .

ففي أطوار حياتك الأدبية ما يعطى منك صورة القاص العربي الذي يصل إلى أعماق الحياة ويفقه كُنْهَها ويستخلص صفوتها ، يصوغ ذلك صياغة حسنة ، فإذا كتب قرأه العامي لأنه يلائم ذوقه وقلبه وطبعه ، وقرأه الرجل الخاص لأن فيه من الابتكار في المعاني ما لا يجده في كثير جدا من الأدب الخاص الممتاز .

ويظهر أنك حاولت أن تحتفظ بهذه النزعة الشعبية في التعبير ، فكان بينك وبين اللغة العربية الفصحى صراع شديد . كانت تريد أن تغلبك على أمرك وكنت تريد أن تقاومها ، وكانت اللغة العربية الفصحى تنسَلُّ إلى أسلوبك والفاظك الخاصة بين حين وحين ، وإذا أدُّبكَ الشعبي يأخذ قليلا قليلا مَسْحَةً من روعة اللغة العربية الفصحى .

ولعلك تذكر ، وإني أذكرك إن كنت قد نسيت ، حديثاً أَلْقَيْتَهُ في بعض مؤتمرات المستشرقين ، وكنت تخلص فيه للدفاع عن اللغة العامية ، وضقت أنا في ذلك اليوم بهذا الدفاع . لم تكن تقدر أنك ستكون مجمعا في يوم من الأيام ، ولم تكن تقدر أن اللغة العربية أقوى منك كما كانت أقوى من كثير جدا من الأفراد بل من الشعوب ، ولم تكن تقدر أنك ستضططر في يوم من

الأيام أن تكون من حماة هذه اللغة العربية الفصحى التي كنت تؤثر عليها اللغة العامية في بعض أوقائك .

ثم نرى تغلب هذه اللغة العربية عليك يزيد شيئاً فشيئاً ، وإذا هي تلتهمك التهاماً ، وإذا هي تصوغك على ما تريد هي لا على ما كنت تريد أنت ، وإذا أنت لا تستطيع أن تُسكّرَ بها إلا على شيء واحد ، هو خير ما نحب لها وهو خير ما تحب لنفسها ، تُسكّرُ بها على أن تُطيقَ من المعاني والخواطر والفنون الرائعة الأدبية الجديدة ما لم تألفه من قبل . وإذا أنت من الممرّنين لها أحسن تمرين ، تُسكّرُ بها أن تصوغ ما لم تتعود أن تصوغ ، وتؤدي بها معاني لم تكن تُكلّف تأديتها من قبل .

قرأت « حديث عيسى بن هشام ، حين كنت صبياً فلم تتأثر به ، وأكبر الظن أنك لم تتأثر به لأنه كُتِبَ على منهج « الحمداني » وأنت كنت تؤثر عليه قصص « ألف ليلة وليلة » .

وحين استأثرت بك اللغة العربية لم تفرض عليك أسلوب « عيسى بن هشام » ولم تفرض عليك أسلوب « الجاحظ » ، ولم تفرض عليك أسلوب القدماء ، وإنما كانت بينك وبينها هُدنة اكتفت منك بأن تخضع لها ، وقبلت منك أن تفرض عليها أسلوبك الخاص . لم تقبل ذلك منك عن ذلة أو ضعف أو استكانة ، وإنما قبلت ذلك منك لأنها واسعة الصدر ، سَمِيحَة النفس ، تؤثر أن تأخذ

أكثر مما تعطي ، وتقبل ما يهدي إليها ليضاعف من ثروتها ويمنحها
الغنى والسعة ، وأنت قد أكسبتها بأسلوبك الجديد سعة وقوة
وقدرة ومرونة لم تكن لها من قبل .

وإني أقرأ آثارك التي كتبتها باللغة العامية ، فأرتاح إليها
أشدّ الارتياح ، على رغم نفوري من اللغة العامية حين تكتب ،
وحبي لها حين يتكلمها الناس .

ثم أقرأ الآثار التي كتبتها باللغة العربية الفصحى ، فأفتنُّ بها
الفتنة كلها ، تفتنُّني معانيها التي كانت تفتنني حين كانت تلبس
الثوب العامي المهلهل ، ويفتنني لفظها لسحره وروعته في سهولة
ويسر ، وفي غير تكلف ولا عنف ، وفي غير بحث عن ألفاظ غريبة
ولا محاولة لتنميقها وترشييقها .

وأمرك غريب أيها الزميل العزيز . كنت تكتب العامية ،
فكانت تأتي كأنما يتفجّر بها ينبوع . ثم أخذت تكتب العربية
الفصحى فكانت تأتي كأنما يتدفق بها نهر ضخيم . فأنت رائع
حين تكتب في العامية ، وأنت رائع حين تكتب في اللغة العربية .
والحمد لله على أن اللغة العربية قد استأثرت بك الاستئثار كله ،
فقد كنت عدواً لها عنيها ، تحبب العامية حين كنا نريد أن نبغضها
إلى الناس ، فانتصرت اللغة العربية عليك انتصاراً رائعاً لا شك فيه .
وأنت كاتب حلو النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل ،

لا تشقُل على قرائك مهما يطيلوا عشرتك .

وأذكر أني تلقيت ذات مرة في باريس (سَلَوَى في مهبّ
الريح) فترددتُ في قراءتها ، وآثرتُ أن أقرأ ما كنتُ أقرأ فيه من
الأدب الفرنسي على اختلافه ، ولا سيَّما حين أكون في فرنسا
ولاكنني لا أستطيع أن أردّ نفسي عن قراءة آثارك ، فأخذتُ
نفسى بأن أقرأ من كتابك هذا صُحُفاً بين حين وحين ، على
ألا يصرفني عما أنا فيه من قراءة في الأدب الفرنسي . وأُفَسِّمُ ما بداؤه
حتى أعرضتُ عن كل ما أنا فيه ، ومضيت في قراءته . حتى أتممت
كتابك على طوله ، ولم أقطع القراءة إلا حين لم يسكن مِن قطعها بدّ .
وهذا شأن غيرها من القصص الذي تكتبه باللغة العربية .
يأتى هذا كله من أنك دقيق في التصوير ، ومن أنك متعمِّق لحقائق
الأمياء دون أن يظهر تعمُّقك للقراء ، ودون أن تقول للقارى :
انظر ألا ترى أنى قد بحثتُ فأحسنْتُ البحث ، واستقصيتُ
فأحسنْتُ الاستقصاء ، ودون أن تصنع صنيع « البُحْثِرى » ،
حين كان ينشد بعض قصائده ، فإذا رأى من المتوكل ، ومن حوله
شيئاً من الفتور سأل : ما لكم لا تعجَّبون ؟ وما لكم لا تصفقون ؟
وفيك بعد هذا كله دُعابة حلوة ، لا يكاد الإنسان يبلغها حتى
يقف عندها ، ثم يمضى في قراءتها ، ولا يسكنه لا ينسى هذه الدعابة .
دعابة في اللفظ ، ودعابة في التصوير ، ودعابة في التفكير أيضاً .

وقد كنتُ أقرأ منذ أيام قصة «شفاه غليظة» ، وكنت أحبُّ أن تسميها «الشفاه الغلاظ» ، فوقفتُ عند تصويرك لشفتي تلك الفتاة . شفتان غليظتان لا تريدان أن تلتقيا كأن بينهما خصاما ، الشفة العليا لا تريد أن تنحدر أو أن تهبط لتمس الشفة السفلى كأن بها كبرياء ، ولكن الشيء الذي استهوى بَطْلَكَ في هذه القصة ومملك عليه قلبه ولبه وفؤاده كله ، هو شيء في إحدى هاتين الشفتين ، تقوم ضئيل جداً في وسط الشفة لا ينفرج ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوى إلا حين تضحك الفتاة أو تبكي أو تأخذها ثورة من ثورات العاطفة .

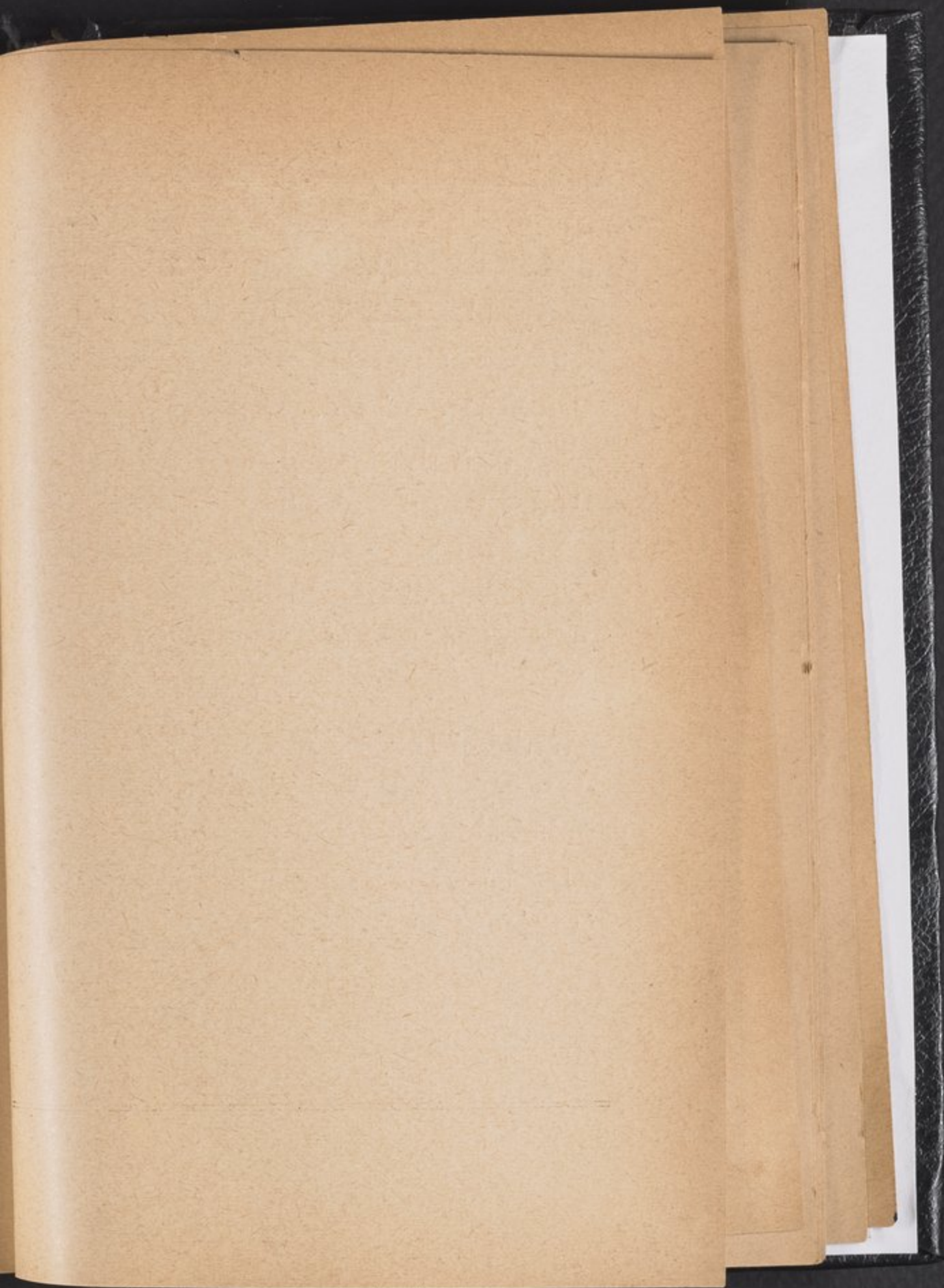
هذا النُتوء اليسير كان مدار قصتك كلها من أولها إلى آخرها ، شيء يسير جداً في شفة فتاة من الفتيات ، رآها محام ففتنت بها وهام بها الهيام كله ، وأقام عليها حياة أخص ما توصف به أنها حياة رجل ذكي عبثت به فتاة ، فاستغفلته مرتين أو مرات . وكذلك أنت في كثير جداً من قصصك ، أو في كل قصصك ، تتخبر أو تستكشف شيئاً يسيراً وتجعله مداراً للقصة تعود إليه ، كأنه لحن من هذه الألحان اليسيرة التي يبني الموسيقى عليها قطعه . فأنت تتخذ في قصصك فكرة أو صورة أو خاطرة دقيقة يسيرة تدور عليها قصتك ، فتستوى وتخلب وتستلب القلوب . كتبك ليست قليلة ، وأحسبها قد بلغت الثلاثين أو

جأوزتها، تُرجم منها الكثير وسيترجم منها أكثر مما تُرجم .
ولا أكاد أعتقد أن كاتباً مصرياً مهما يكن شأنه قد وصل إلى
ال جماهير المثقفة وغير المثقفة كما وصلت أنت إليها . فأنت شديد
الانتشار ، لا تكاد تكتب السكتاب حتى يتهاافت عليه القارئون
في البلاد العربية كلها .

أتظن بعد هذا أنك لم تتفوق على أسرتك ، ولم تُضيفْ إلى تراثها
العظيم ؟ أتظن بعد هذا أنك مدين بمكانتك الأدبية لهذه الأسرة الأدبية
النابعة ؟ أليس الحق أنك أخذت عنها كثيراً ، وأضفت إليها كثيراً ؟
ثم أتفهم الآن لماذا سعى إليك المجمعُ سعيّاً رفيقاً كما يسعى
إلى شيء ذي خطر لا يسهل الوصول إليه ؟ سعى إليك سعى
الحياة فيما يقول « عمر بن أبي ربيعة » ، سعى فقدّر آدابك
العربية وأجازها ونوّه بها ، ثم استأنى بك لأنه يعرف تواضعك
وهذوءك ، ويعرف ما طُبعت عليه من حب العزلة والانزواء ،
استأنى بك حتى تُسيغ هذا التقدير وحتى تطمئن إليه . استأنى
بك سنة أو سنتين ، فلما عرّف أنك تلقيت هذه الصدمة وصبرت
لها واحتملتها ثم تعزيت عنها ، فسافرت وأقت وقرأت وأنتجت ،
هجم هجمته الكبرى وأخذك على غرة . وأشهد ما عرفت أنت
ولا أحسست قط بأن المجمع يريد أن يضمك إليه ، وإنما أخذك
المجمع فجأة في ذات يوم في جلسة من الجلسات . انتمرك صديقان لك

هما، أحمد أمين، و«طه حسين»، فرشحاك للمجمع ولم يكاد يعرضان
ترشيحهما حتى أجمَعَ هذا المجمع على اختيارك، وإذا أنت قد اتهمت
المجمع التهاماً كما اتهمتك اللغة العربية الفصحى التهاماً من قبل .
كنت مدافعاً عن اللغة العربية الفصحى بما تكتب وما تنتج
من آثار، لا تكاد تزيد على ذلك . وحسبك بهذا دفاعاً عنها
وصيانة لها . ولكن المجمع يقول لك منذ الآن ألاّ تسكتني بالإنتاج
الأدبي، بل تضيف إلى هذا الإنتاج الأدبي مشاركة في هذا
العناء المتواضع الذي يشقى به المجمع مرة في كل أسبوع، وعسى
أن يشقى به أكثر من مرة . فاصبر نفسك على الصدمة الثانية
كما صبرتَها على الصدمة الأولى، واطمئن إلى أن المجمع لا يملك
أن يرؤوَعَكَ بعد ذلك، فقد انتهى من أمرك .

ولكن لا تطمئن ياسيدي، فإن الدنيا لا تشتمل على المجمع
وحده، وإن الذين يُنتِجُونَ مثل ماتنتج، ويسيرون في
الحياة الأدبية والعقلية مثل ماتسير، مُضطَرُّونَ إلى أن
يصبروا للأحداث، وأحداث المجد الأدبي خاصة، وهذه الأحداث
أظن بل أصدق بأنك تعرف أثقأها، وتعرف كيف تحتملُ
هذه الأثقال .



الفنان في صورة هيك

يختلف الفنان عن سواد الناس بأن فيه عبقرية ترفعه
عن المستوى المألوف ، وتدفعه إلى مزاولة ما بين يديه من العمل ،
على نحو تتجلى فيه الروعة والطرافة والإبداع .

ولسنا نقصد بالفنان من يهوى فنا من الفنون الجميلة أو يمارسه ،
ولمّا نقصد ذلك الذي وهبه الله تلك القوة الممتازة ، تلك العبقرية
الفنية ، فأصبغت عليه تلك الصبغة الخاصة فيما يمارس من الأعمال
أيّاً كان اللون الذي تتّسّم به ...

وإنك إذا عرضت مواكب التاريخ في ركب العصور ، تراءت
لك شخصيات من الملوك والوزراء والحكام ، تولوا أقدار الدول
ومصائر الشعوب ، فإذا توّسمت هذه الشخصيات ، وتفحصت ما جرى
على يديها من جسام الأحداث ، تسنى لك أن تميّز فيها بين
الشخصيات المألوفة والشخصيات التي أوتيت عبقرية الفن ،
فأُتسمت أعمالها وتصرفاتها بروعة وطرافة وإبداع ...

ولقد تجلت في البيت العلوى تلك العبقرية الفنية في مظهر
وضّاح، وكان رأسها « محمد على الكبير » فنائاً تمثل فنّه
في عبقرية الخلق والإنشاء، فهو باعث أمة، ومنشئ دولة .

وجاء ابنه « إبراهيم » يمثل فنّه عبقرية الفتح والغزو، طامحاً
أن يجعل من « مصر » إمبراطورية واسعة النطاق ...

ثم كان « إسماعيل » فنائاً عبقرياً في التجديد والتجشّر، محاولاً
أن يجعل وطنه قطعة من بلاد المدنية والعمران ...

ثم شهدنا « فؤادا » فإذا بعبقريته تنحو نحو النهوض والتعمير،
وقد كان عهده عهد الوثبات البعيدة في شتى المرافق ومناحي
الاجتماع ...

وهانحن أولاء نشهد عصر « الفاروق » فإذا بنا نرى الفنان
في صورة ملك، الفنان في أروع مظاهره، فقد استوعبت عبقريته
ألواناً وشكولاً من عبقریات بيته العلوى . ولعلّ أوضح سمة
لعبقرية « الفاروق » أنها ذات صبغة إنسانية مجلوة ...

تموضح إنسانية « الفاروق » في شتى أعماله ومساعيه، وليست
ديمقراطيته التي أصبحت مضرب المثل إلا أول آية من آيات
إنسانيته الرائعة ...

وإن الشمس لتشرق كل يوم ، فيطالعها عمل جديد من أعمال
« الفاروق » ، أو تسعى من مساعيه يهدف به إلى إسعاد شعبه ، على
أسلوب جديد رائع ، أسلوب الفنان في أوج عبقريته ، يبرز بصليعه
النفوس هذا ، ويدفعها إلى الاستجابة دفعا ...

لا يجرى « الفاروق » في مزاوله مهام المُلْك على الأسلوب
التقليدي الشائع ، وإنما هو يعطى من عظمة روحه ومن زهرة شبابه
ما يجعل الملك بين يديه فناً رفيعاً يتجلّى فيه وحى العبقرى
والهام الفنان ! .

وطبيعى أن يكون قلب الفنان عطوفا على كل اللوامع الفنية
في وطنه ، حريصاً على أن تحيط به من كل جانب ، ومن ثم نرى
« الفاروق » العظيم لا يكاد يلح قبسا من أقباس الفن في الأفكار
والأعمال والأشخاص ، إلا أفاض عليه ضروبا من الرعاية
والعون والتشريف .

ولقد شهد ناعصر « الفاروق » ، تسطّع في سمائه نجوم في السياسة
والرياضة والعلوم والآداب وشتى ألوان الفنون الجميلة ، فكان
للمعية الملك الفنان كبير الفضل في أن تتجلّى هذه النجوم ، لا تحجبها
العوائق ، وأن تتبوأ في آفاق الحياة الاجتماعية منازلها ترسل منها

سواطع الأضواء . وإذا كانت الأفلاك في سمائها تدور بجاذبية
شاملة ، لا يتخلف بها كوكب عن مداره ، ولا يبطل بها نجم عن
تسلياره ، فإن شخصية « الفاروق » ، في عصره تمثل هذه الجاذبية
في المجتمع المصري ، وإنها لقوة تؤلف بين تيارات النشاط الفكري
والاقتصادي والاجتماعي ، وتبعث فيها جميعا روح النهوض والتوثب
نحو المثل العليا والأهداف الجسام .

أبو الهول يناجي القاهرة

(رسالة يبعث بها « أبو الهول »
إلى مدينة « القاهرة » يثنها فيها
بعض ما يتناجي في صدره .)

صديقتي ، القاهرة ، :

هذه رسالة أناجيكَ بها ، وإنها لأول رسالة أفضى بها إلى كأن
كان ، منذ عهد عهد ...

رسالة أكتبها إليك بلغتي الأصيلة ، لغة الرسوم والنقوش ، فعلى
الرغم مما وعاه صدرى من مختلف اللغات بعيدها وقريبها ، ومن
شتى اللهجات مانوسها وبحفوفها ، مازالت « الهيروغليفية »
أثيرة عندي ، لا تفـضـلها لغة سواها .

ومرّد هذا الإيثار « للهيروغليفية » ، أنها اللغة التي نزلت من
إساقى منزلة الفطرة والسليقة ، فأصبحت موصولا بها ، وأصبحت
هى موصولة بي ، فنحن صنوان لا يفترقان .

وأكبر ما أخشاه أن أصطنع لغة مستحدثة ، وأن أدير على
لساني لهجة غير لهجتي فأفقد سلامة المنطق ، ولا تستقيم لي قدرة
على التعبير الصحيح .

على أن اللغة « الهير و غليفيه » تتميز بما في رسومها من جمال ،
وما في نقوشها من طلاوة ، وذلك كله خليق أن يغريني بالاحتفاظ
بها على تطاول العهد ، وتقادم الزمن .
ما أروعها من لغة !

إنك إذ تقلبين النظر في حروفها ، وتتصفحين ماحوت من
رسوم ونقوش ، فكأنك تجوسين خلال مُتَحَفٍ زَخْرَتِ
أبهاؤه وقاعاته بما سجلناه على جبين الأيام من فن جميل ..

ولعل حين أناجيك بهذه الرسالة أमित اللثام عن حقيقة
ما أشاعوه عني ، إذ رموني بالصمت المطبق ، بل جعلوني رمزاً
للعيى ، ومثلاً للبسك ، فكأنني عندهم لا أزيد على صخرة خرساء !
حقاً لقد زُئِمْتُ شفتي منذالت دولة هذه اللغة ، الهير و غليفيه ،
التالدة ، فلم أنطق بحرف . ويشهد الزمن أني مارضيتُ بحظي هذا
من السكوت ، فأنا أضيق ما أكون صدرأ بحُبْسَةِ اللسان ،
وشد ما تشوّفت إلى جليس يتحدث إلى بلغتي ، فأجاذبه أطراف

الكلام ، وأروى ظمأ فضوله فيما يريد أن يسألني عنه من مكنون الأحداث .

فهل وفدت على سائل يتحدث إلى بلغتي ، فرددت له كثير الخاطر ، كاسف البال ؟

فيم إذن هذه الفرية التي زورونها على ، فرية العيو والانعلاق ؟
كثيراً ما هممت بأن أحل عتمة ذلك اللسان الحبيس الذي ضقت بصمته ، وكثيراً ما لمع في خاطري أن أطلق الصوت عالياً مدوياً في تلك الرحاب الفساح من حولي ، لأخفف عني ما أعانيه من وحشة وخرج ، واسكن أين من يتبين في صيحاتي ما أريد الإفصاح عنه ؟ أين من يصغى إلي ، ويفهم عني ؟

لسكائي بمن يسمعوني وقد ولوا فراراً مني ، أو هزوا رموسهم سخريّة بي ، يظنون أن رأسي قد خرب ، فراحت تصفّر فيه الرياح !

وهأنذا أخيراً أشعر بأنني في حاجة إلى أن أناجيك ... أناجيك أنت أيتها الصديقة التي جاورتني منذ أربعة عشر قرناً ، فأهديت إليّ أنسا وطماً نينة ، بعد أن قضيت سواف القرون وأنا في تفرد وعزلة ، تتقف من ورأى هذه الأهرام الثلاثة ، أو بالأحرى هؤلاء

الأحراس الأيقاظ ، مشرّبين متشاحنين كأنهم زبانية يعدّون
على الأنفاس !

ثمّة عاطفة توثقت وتأصلت ، ولم أعد أطيق لها كتباً . . .
عاطفة تهزني إليك ، وتصلني بك ، وأنا في مكاني لا أستطيع
منه البرّاح

لقد آن لي أن أتنفّس ، وأن أجلو لك دخيلة نفسي . . .
إن دأبا الهول ، اليوم ليتكلم . . . ولسكنه لا ينطلق له صوت .
إنه يروح لك بمكنون سره سطوراً وكميات .
هذه رسالته إليك أنت وحدك . . .

ربما خدعك مظهرى ، نخيل إليك أنى كما أنا صخر مُصمّت ، جماد
يحيا في كهوف الرمال ، طوى الأحقاب في معتزله كما يطوى الناسك
عيشه ، صائم الدهر ، حليف الصمت ، يسبح في غيبوبة ليس
لها مُنتهى . . .

هل خطر ببالك أن لهذا الجماد قلباً ؟

قلباً كسائر القلوب الحية . . .

قلباً يسعد ويشقى . . .

قلباً يتعاوره الأمل واليأس . . .

قلباً تتداوله ألوان المشاعر والأحاسيس ..
آن لهذا القلب أن يعبر عما يحيش فيه !
آن له أن يُذيع هوى لك طالما كتبه في الأعماق ...
لا يُسرَّ عنَّ بكِ الاستخفافُ إلى الابتسام ...
أشفقى على محبٍ عفيفٍ الهوى ، صان لك حبه طوالا من
العصور والآماد ...

لست أغفلُ عما بيننا من فروق ...
أين أنا منك ؟
أين ذلك الناسك المتقشف تكسوه سافيات الرياح ، من
عروس وضاحة الجبين ، تحفُّ بها مجالى الحياة والبشر والنور ؟
أين أنا منك ؟
أين ذلك الجماد المكسور الأنف ، القابع في ألفاف الركود
والخمود ، من تلك الزهرة النامية ، المتطلعة بأنفها الأشم إلى موصول
التجدد والازدهار ؟

يا لله !

ما أشدَّ شغفى بك !

قسَّماً إن حياتى كانت قبل أن أراك هباءً ، فإذا أنت .

تَبَنُّ غَيْنِ قِبَالَتِي ، فتملئين عليّ دنيای من بهجة وإيناس ...
أنسى ولا أنسى يوم حل ذلك العربيّ النميل بهذا الوادي ، وما
هو إلا أن خرج بك من فسطاطه ملفوفة في شملته البدوية ، فسوّى
لك على شاطئ النيل مهدك الأول ، مهدا من مُسندس خُضْر ،
تظله بواسق النخيل ، وتهدهده عرائس النسيم ، وتشدوله راقصات
الطير بأعذب الأهازيج ...
يابنة الفسطاط :

في ذلك اليوم الميمون ، يوم مولدك الكريم ، فتحتُ عيني
الظامّة الكابية ، فالتقت بعينك الريّانة اللامعة ، فأحسستُ أول
ما أحسستُ أن بين جنبي قلبا ، وأن هذا القلب نابض خفاق ...
لم أكن أعرف لقلبي هذا من وجود ، قبل أن تكنحل بمرآك
عين الوجود ...

لكأنك تقولين :

ألم تكن « مشفيس » عن كُشْب منك ، في جنوب الوادي ؟
أو لم تكن كذلك « عين شمس » بمقربة منك في الشمال ؟
كانتا هنالك حقاً يابنة الفسطاط .. وعاشتا دانتين منى لاريب .
ولسكني لم أشهد لهما ظلا ، ولم أحس لهما حياة ...

أما أنت فقد رأيتك أماحى تتخلقين وترعرعين ، فكنت كأنما
أنا الذى أتعهد تذكنتك ، وأرعى تنميتك ...

أنت ابنتى طفلة ...

وأنت ربيبتى صبية ..

وأنت صغيتى فتية مكتملة النضج والتفتح ...

يتمثل فى ظنى أنك تهمسين قائلة لى :

لانى غريبة عنك ، حملنى « ابنُ العاص » معه غرساً من
البادية ، فأزيتها على ضفة النهر المبارك الغدوات والروحان .

لله ما أجملك من غريبة مأنوسة !

كان لزاما على ذلك الوادى أن يستقبل غرسا غريبا عنه ...

نباتا جديدا فتى الروح !

لقد ران الخمول على تربة هذا الوادى ، دهورا متلاحقة ، فقضى
حياة رائبة خاملة ، فما إن برزت فى أفق حياته كالسكوكب المتألق ،
حتى شعرنا بهذا الوادى يلتعش ويتجدد .

منذ هبطت هذه الرقعة من أرضه ، سرت فيه سارية من
النور ، تهديه طريق التحضر ، وتزف إليه طريفا من العظمة والمجد .

لله ما أعجبك من غريبة ألوف !

لم يسكد يستقر بك المقام على هذه الأرض ، ترتوين من
رحيق نبعه ، وتتنفسين في رحيب أجوائه ، وتغتدين من تليد زاده ،
حتى زالت عنك الغربية ، وما أسرع أن اندمج الوادى فيك ،
واندمجت فيه ...

لقد تم بينكما تآلف وتزواج ، فتجلت على الوادى تلك الشخصية
المتميزة ، متوئمةً أبدأ إلى مشارق الأبحار .
فيابنة الفسطاط :

كيف لا أهتم بك حبة ؟

أنتِ دَوْماً مطمَّح البصر ، إليك أرنو ولا أَمَلْ ...

قاسمتُك مامرّ بك من أحداث ، وبها من أحداث !

لقد تعاقبت عليك الأيام بالسعود والنحوس ، وتداولتك
الأقدار بين إقبال وإدبار ، ولـكنك ظَلِلْتِ عِنْدِي كما أنتِ أثيرة
حبّية ، لا يلحق صفاء حي لك شوب !

لبثتِ رَدْحاً من الزمن صبية عربية في فُسْطَاطك البدوى ،
تحاولين جهد المستطاع أن تحتفظي بذلك المظهر الساذج ، فإذا
بك قد وفد عليك ، جوهر الصقليّ ، يهدي إليك كنوز المغرب ،
ويتودّد إليك بألوان من الترف كانت قصارى ما بلغه الفاطميون

من ثروة و غنى ، فأصبحت بحق « قاهرة » القلوب ، وما أنت إلا
قاهرتى أنا ... قاهرة ، أبى الهول ،
ما أفتنك وما أبهاك من قاهرة !

فى هذا العهد الفاطمى الألاق ، زانك ذلك الزى المتترف ،
حافلاً بالنفيس من الحلى ، والفاخر من الحُلل ، فازدانت بك
محافل الأعياد والمواسم درة باهرة السنا ، تهوى إليها أفئدة
الناس من كل فجٍّ وصوب ...

على أنك بعقلك الكبير سموت فوق لهُو الغوانى ، ودلال
الحسان ، فكنت راعيةً للعلم ، أمينةً على الدين . فى أفقك الصحو
تعالى مثذنة « الأزهر » العتيد تعلن كلمة الله ، وفى رحابك الخصبية
انتشرت معاهد الدرس والبحث ، وعلى أبوابك العامرة احتشدت
الوفود تلتهمس عندك الخير ، وتطلب الزُلْفَى .

ثم تواردت الأيام ..

وإذا أنت فى صحبة ذلك « الأيوبى » ، الأبى ... تلبسين دروع
الحرب ، وتعبئين كتائب الشجعان ، ثم تخوضين الغمرات يخفق
فوق رأسك لواء النصر والغلب ...

ودارت بك دورة الأيام ...

وإذا أنت بعد النعمى فى بؤس ، وبعد العزة فى هوان ..
يا لتلك الأيام الصعاب !
كنتُ أحسُّ أنا الصخرة العاتية التى ثبتتْ على الدهر ، كما أنى
أذوب وأتحلل من فرط التحسر والأسى ...
ومن أين لى صبر ، وأنا أراك تحت سطوة ذلك « المملوك » ،
الجبار ، ينظر إليك نظرة النَّمِر المفترس ، ويلهب جسدك
العزیز بالسياط ؟
ولسكنك كنت كريمة فى عهد هوانك وانكسارك ، كما كنت
كريمة فى أيام إقبالك واعتزازك ...
وراء الغلائل من دمعى الهتُون ، كانت تتراعى بسمتك
الأصيلة النبيلة ، يتجلى فيها الأمل الحلو ، والإيمان المسكين .
ودالت دولة هذا الطاغية العسُوف ...
دالت دولة العبودية والإذلال ...
وخرجت من بُوتقة المحن والأرزاء ، صافية الجوهر ،
فكنت الظاهرة القاهرة .
وكيف لا تكونين كذلك ، وقد قيَّض الله لك ذلك الشهم
الغيور ، ذلك العبقري الفذ ، ابن دقوله ، ؟

لكأنى به وهو فى مَسَقَطِ رأسه البعيد ، يجلس الساعات
الطوال ، رانياً إليك ، يخرق بنظره الشاقب سجوف الزمن ،
ويغالب أمواج البحر ، فيراك فى محنتك تعانين الشقوة والبأساء ،
ويستمع إلى ندائك اللاهف المستصرخ ، فلا يملك إلا أن يهبَّ
إليك واثباً وثبته السكبرى ، هاتفاً من أعماق قلبه :

ليبك ... لبيك !

إنى لأتمثله الساعة ، وقد هبط عليك ، باسطاً ذراعيه إليك ،
فتراميت فى أحضانه واجفة القلب ، فياضة الحنين ، وكان بينكما
هذا العناق الذى لم يسكن بعده فراق !

لقد ذاب فيك ، وذبت فيه ، فغدوتما كائناً فرداً لا يتجزأ ...
وهل يذكر « القاهرة » ، ذاكر دون أن يسرع إلى خاطره طيف
« محمد على » ؟

أليس هو حتى اليوم محلّقاً بروحه العظيم حول قلعته ، يشرف
عليك من عل ، يتعهدك ويرعاك ؟
أوليس هو حتى اليوم متمثلاً بهمته الوثابة ، وعظمته الخلافة ،
فى دم حفيده « الفاروق » ، الجالس على العرش ، يحدد نهضة الوطن ،
ويبعث قواه إلى الأمام ؟

يا قاهرتي العزيزة :

أنتِ اليومَ كعبةَ ذلك الشرق المنبعث لاستعادة حقه في
مكانة الصدر بين الأمم ...

مت اليوم قلب الشرق النابض ، لسانه المفصح ، عقله اليقظ ،
ضميره الحي ، جبهته الأبية .. أمله المنشود !

أنتِ على الرغم من كل شيء قاهرة ...
وستظلين مابق الدهر ، وأنتِ القاهرة ، !

صديقك

« أبو الزهول »

(عن رسوم ونقوش هيروغليفية — وفق الأصل)

أحمد لطفي السيد

ليس من المتعذر على كائنٍ كان أن يرسم صورة واضحة الملامح
والقسمات «للطفي السيد» ، دون أن يجالسه ، بل دون أن تقع
عينه على رسمه ...

فالرجل يحيا في دنيانا هذه ، لا بجسده وشيأته ، بل بفكره
وعقله ...

متى استوعبت آراءه وتأملاته ، تمثلت لك على الفور صورته
واضحة تمام الوضوح ...

إنه فكرة أكثر منه جسدا ، وعقل أكثر منه مادة ، وقوة
تُحَسُّ أكثر منه خلقاً يُلمَس ...

إنه أدنى منها إلى الخط المستقيم الذي هو أقرب بُعد بين
نقطتين ، واسكنه ليس بالخط السطحي ، يجري به المداد على
القرطاس ...

هو خط متغلغل يصل إلى أعماق الأغوار من الفكر الإنساني
الأصيل ...

خط مستقيم لا غير ...

خط سريع الحركة ، يندفع من نقطة البدء إلى نقطة الانتهاء ،
كتيار النور ، شديد التألق ؛ يبلغ الهدف ، كالقذيفة الصائبة !
إذا لمحت هذا الخط يرف في سماء الفكر ، أغناك عن
خطوط كثيرة أخر ، تمتد حيناً ، وتتعرج حيناً ، وتلتف هنا
وهناك ، يحسب الغافل أن في امتدادها والتوائها وتذاوبها سر
عظمتها ، ولكنه في الحق لا يصيب منها غير إخفاق التجربة ،
وضيعة الوقت ، وسوء المصير .

إنه كلمة واحدة ...

لفظ غني ، يخر بكمبار المعاني ، فيه غناء عن مقال ومقال ...
إن رسالة البعث للشرق وتحديد شبابه ، تلك التي هبط بها
« الأفغانى » ، ونفخ في روحها « محمد عبده » ، قد انتهت إلى يد
« لطفي السيد » ، فحمل شعلتها ، وظل يُذْكرها ، ويتخطى بها أشواك
العقبات والعراقيل ...

وما برحت هذه الرسالة حتى اليوم في يده ، ومن حوله جيل

هو صاحب توجيهه في النهوض والمضي إلى الأمام ...
لقد تسلم « لطفى السيد » المشعل ، يوم كان وقوده الزيت ،
فلما وجد الزيت غير صالح استبدل به « البترول » ، ونحن نراه اليوم
يستبدل بالبترول قوة كهربية ، وكأننا نراه يفكر في أن يزود
مشعله بطاقة الذرة إن كان لها أن تُنير !
وتلك هي الأمانة الكبرى التي تُناط بِحِمْلَةِ المشاعل في
الأمم النواهض ...

واجبهم مسيرةُ الزمن ، وملاءمة التطور ، والعون على التقدم
والسبق ، دون اكتراث بمشبطات التزمّت والجمود ...

نادى « لطفى السيد » بالوطنية المصرية ، يوم كانت الوطنية في
أوج حميَّتها لا تعرف غير الوطنية العثمانية ، فكان الخفقة الأولى
في ذلك القلب المصرى الذى ينشد مكانه بين الوطنيات الخالصة ...
أدرك هذا الرجل ببصيرته العبقريّة أن الإمبراطورية العثمانية
إلى زوال ، فكانما أزاح الستار عن طوايا الغيب ، فتبيّن له أن هذه
الإمبراطورية ليست في ضخائتها إلا ورما يوشك أن يتراخي
ويضمحل ، وأنه لا خير « لمصر » إلا في أن تعول على نفسها ،
لا يقاظ وعيها القومى ، ودغم استقلالها الوطنى .

ولم يلبث الغد أن كشف عن وجهه ، فإذا هو مُصَدِّاق ما بُشِّرَ به « لطفى السيد » بالأمس ، فكانت فكرته نواة الثورة المصرية التي آتت أكلها فيما بعد ...

واليوم وقد استتبَّت فكرة القومية المصرية ، ورسخت جذورها ، وتسامقت فروعها ، وجد « لطفى السيد » عالم الحضارة يتطلع إلى تآلف وتأزر واتحاد ، فألفيناه يتمثل هذه الفكرة ، ويعبر عنها في تأييده « للجامعة العربية » على أساس أنها صلة بين أمم : « اتسعت بينها دائرة المشابهات ، وضائق دائرة الفروق » ! ليس « للطفى السيد » كتاب من تأليفه ، شأنه في ذلك شأن سالفَيْه : « الأفغانى » و « محمد عبده » ...

كل ما لهم أفكار ومبادئ وآراء يبسطونها حيناً في توجيه أو إحياء أو عمل ، ويرسلونها حيناً في حديث أو خطبة أو مقال ، وإن قومهم ليلتقطون ذلك كله فيجمعونه ، كما يلتقط الحواريون والتلاميذ والشيعة ما تتمخض عنه عبقریات القديسين والفلاسفة وقادة الأمم ...

إن هؤلاء القديسين والفلاسفة والقادة لا يفرغون عادة لتأليف وتدييج ... حياتهم كتاب يمتد ويتجدد وينمو ، وأيامهم

صفحات مسطورة ناطقة تتملاها الأعين ، وتستمل منها الآذان ،
وتهفو إليها القلوب !

أكبر ما يتميز به « لطفى السيد » عقليته الإنسانية ، تلك
العقلية الحرة الطليقة التي لا تحدّها قيود وأسوار ، فهي بما لها من
أجنحة خفاقة لا تعجز عن التحليق في شتى الآفاق ...

ولعل ذلك سرّ ما زاه من ألفتيه للفلسفة الإغريقية ،
وبخاصة صُحبته الأصيل « لأرسطو » المعلم الأول ، الذي كان مناط
فلسفته هو « الإنسان » في أوسع زمان وأرحب مكان !

ليس بدعاً أن يكون « لطفى السيد » كصاحبه « أرسطو »
مأخوذاً بالطابع المنطقي الذي هو التناقض والتوافق على أساس من
سلامة المقدمات وصحة النتائج .

ترى ذلك واضحاً في فكره وقوله ومسلكه ، في هيئته وشارته ،
حتى إن لبؤسه ليكتسى بذلك الطابع ، فأنت تشهده أنيقاً ،
ولسكنك تشعر بأن أناقته من نوع خاص ، لعل أصدق وصف لها
أنها « أناقة منطقية » ...

بذيقه منشأة ، ورباط رقية منتظم العقدة ، وخلة كائنات
فيها قوامه صبايحاً يكشف لك عن رشاقة نبيلة .

وما حديث « لطفى السيد » إلا مظهر آخر من المنطق المتزن ،
فى غير غلظة ولا جفاء . .

يُخَيِّلُ إِلَيْكَ ، وَأَنْتَ إِلَيْهِ مُسْتَمِعٌ ، أَنْ الْكَلِمَةَ لَا تَنْفَرُجُ عَنْهَا
شَفَتَاهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَجُوزَ فِى خَيَلَتِهِ بِأَدْوَارٍ وَأَطْوَارٍ لَا تَقِلُّ فِى نَظَرِي
عَنْ أَطْوَارِ الْجَنِينِ الَّتِى يَجْتَازُهَا حَتَّى يَتَخَلَّقَ بِشَرَا سَوِيًّا . فَهُوَ
لَا يَتَفَوَّهُ بِالْكَلِمَةِ إِلَّا بِمَحْكَمَةِ مَكْتَمَلَةِ النَّمُو ، وَلَا يَلْقَى بِهَا إِلَّا فِى مَوْضِعِهَا
الَّذِى يَنْتَظَرُهَا لَتَمْلَأَهُ

لِذَلِكَ تَمَيَّزَ حَدِيثُهُ بِالْإِنَانَةِ وَالْإِقْتَضَابِ ، وَإِنَّمَا لِنَرَاهُ يَسْتَعِينُ
بِطَوَائِفِهِ يَشْعُلُهَا وَاحِدَةٌ إِثْرَ الْآخَرِى ، مَتَخَذًا مِنْهَا فُرْصَ رَوِيَّةٍ ،
وَمُهَيِّئَةً تَأْمَلُ ، حَتَّى لَا يَضْجُرُ السَّامِعُ بِمَا يَكُونُ مِنْ فُتْرَاتِ
الصَّمْتِ . .

وَخَلِيقٌ بِجَلِيسِ « لطفى السيد » أَنْ يَضْجَرَ بِصَمْتِهِ ، إِذْ يَفُوتُهُ
بِهَذَا الصَّمْتِ أَنْ يَسْتَمْتَعَ بِمَا لِحَدِيثِ ذَلِكَ الْفِيلَسُوفِ مِنْ رُوعَةٍ وَسِحْرِ .
وَإِنَّ الْحِكْمَةَ الْقَدِيمَةَ تَقُولُ :

« إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فَضْةٍ فَالسَّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ ،

وَلَسَكُنَ مَنْ يَجْلِسُ إِلَى « لطفى السيد » مُسْتَمِعًا إِلَيْهِ ، يَشْعُرُ دَائِمًا

بَأَنَّهُ إِذَا كَانَ السَّكُوتُ مِنْ فَضْةٍ فَالْكَلَامُ مِنْ ذَهَبٍ !

عبد العزيز فهمي

كان شأني مع «عبد العزيز فهمي باشا» ، هو شأن كل امرئ مع
الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس ، هؤلاء الذين تنتشر
أنباء بطولاتهم على الأسماع ، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس ،
وتتجلى صورهم في الصحف مختلفة الأوضاع . فإن تاح لك أن
تراهم ، لمحتهم عبراً في سيارة ، أو خطفاً في مجتمع . . . وإن
صورتهم التي تتمثل في الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف
ذوات الهالات من نسج الخيال !

ظلت علاقتي «بعبد العزيز فهمي» ، لا تتجاوز هذا المدى . أعلم
أنه أحد ثلاثة كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة
المغتصبة ، وتتناهى إلى تلك الأحاديث النادرة التي تصف مواقفه
الرائعة الجبارة في السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتمعت فيها صورة الرجل عن كشب ، كانت بدار
المجمع اللغوي ، في زيارة لتلك الدار . . .

لمحتّه على أريكه يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة ،
متراخي الاوصال ، قليلا على الأريكة شخصه الضئيل ...
فاسترعى نظري منه طول إطراره ، وقد أزاح طربوشه إلى
الوراء ، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق ...
فناجيت نفسي :

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية للكتابة العربية ..
ذلك المشروع الذي انبعث من المجمع قذيفةً اهتاج لها رجال
الفكر في أرجاء الأمة العربية ، وكانت مشاريقظة ونشطة وانبعاث؟
ووقعت في يدي نسخة من ذلك الكتاب الذي ترجمه
« عبد العزيز فهمي » ، منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدونة جوستنيان »
في الفقه الروماني ... مجلد ضخّم زاخر بخلاصة التشريع في ذلك
الزمن البعيد ، هو آية إعجاز في دقة التعبير وإحكام الأداء ، تتجلى
في ديباجة عربية بليغة عليها رَوْنَق ونق ورُواء .

ونمى إلى أنه احتبس في داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره
في الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد في الشهر الذي
أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فسكانه يتوّج تلك السن المباركة
بذلك الجهد العليّ الرفيع !

كنتُ أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فتتَرَفُّ حوالى صورة ذلك الرجل الذى لمحتُه متمكشاً على الأريكة فى دار الجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندى من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطبقها إلا الأقلون الأندرون ...

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران : لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور
شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجزتُ فى طريق « بكفر المصيحة » - بلدة «عبد العزيز فهمى» - فالقيتني أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً فى بيت «عبد العزيز فهمى» الشاوخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت ماثبة الآباء والأبناء والحفداء ، كل دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبت أن سمع أحاديث الناس ، فإذا هى السنة تمجد ماثر الرجل ، وتُشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهلها المتصافين ...

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزراع من أهل منطقته ، يأخذ

بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمين والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أيدٍ كريمة لتمدين البلدة
وتجديدها ، بتعميد طرقها وتوشيتها بالمنازة والمؤسسات ، حتى لقد
أضحت « هليوبوليس الريف » ، وأصبح هو « بارون اميان كافر
المصلحة » !

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل في سبيل نشر التعليم بين أبناء
بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التي نفخ
فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

في هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم مدرسة ابتدائية
لتعليم البنات ، فلا بدع أن يقصّ علينا متحدث رابع أطروفة
فسكهة ، تلك هي أن الفلاحات يخرجن في الأصائل إلى النيل ،
حاملات جرارهن يستقيّن ، فإذا ما صدرن عن الماء آيات
إلى الدور ، وقفن في منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع
الصحف ، حتى إذا أهلّ عليهن برزّمته ، تخاطفن منه الصحف
في حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أمان على
رءوسهن الجرار ، ومضين يروين ظمأهن من أنباء السياسة
وشئون البلاد . . .

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى «عبدالعزیز
فهمى» جلسة تحية وتعارف، فلما قفلتُ إلى القاهرة، لم يهدأ لى
بال حتى رغبتُ إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء...
وفى منتصف الثامنة من أُمسِية يوم كنت أنا وصديقى أمام
دار الزعيم، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى
تَرْفِ القصور...

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة، ولبثتُ واقفاً
أجیل الطرف حولى، وقد شملتنى رهبة ومهابة، على الرغم من
سداجة ما يحيط لى من مظاهر... طابع شرقى محافظ، مُشْبَع
بحو عائل تشيع فيه الطمأنينة والهدوء.
فرُحت أهجس:

هنا فى هذا البهو تلاقى شخصيات عظيمة، واختمرت أفكار
حاسمة، وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيف من
الرعیل الأول الذى كانت خطاه رَسْمًا لأقدار «مصر» الحديثة
فى نهوضها السياسى والاجتماعى والعلمى...

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس، وإنى
لأكاد أجش من رَوْعة التذُّكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم
يذهب مع الريح!

لم تسكد تمضى بضع لحظات حتى ارتقين الدَّرَج إلى مُعَشِّ الزعيم ، فأقبلنا عليه في حُجَّيرَة خشبية نصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار . . . وكان الزعيم جالسا في ركنٍ خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يده منضدة مُبَسِّطَت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه في لبِسة المُتَفَضِّل : منامة صيفية ، وقلنسوة بيضاء تتراعى على مؤخر رأسه ، وكان لقاءه لقاء السَّخَّاح الأريحي في حفاوة شرقية أصيلة تشرح لها الصدور . . .

جلستُ إليه دقائق مستغرقا في صمتي ، شاخصا ببصرى لأرِيمُ وجه ذلك الرجل الذي تتضوأ شيخوخته أنيسة محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفثيه في عذوبة وصفاء . . . وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس ، حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجمام ، فخشيت أن أكون قد لقيته في وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديق النظر أسأله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد أَلِفَ هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة . وكُشِفَت عُلبة اللفائف ،

وما هي إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض،
وجرى الحديث طلقا زائحا لا لغو فيه ولا فضول. فلبثتُ
أستمسك بالإصغاء، مؤثرا ذلك السكوت الذهبي الذي يتيح لي أن
أودع سمعي غوالي الكلام...

حديث «عبد العزيز فهمي»، صورة واضحة من شخصيته:
خلاقة في المنطق، ونصاعة في العرض، وصدق في اللهجة...
إن الكلمات لتندفع على شفثيه مشبوبة الحيوية تتوهج، وإنك
إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وثورة دمه، فيتجلى لك مظهر
رائع من حرارة الإيمان ونقاء الطوية وصراحة الرأي...

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض
فيه من الحديث، لكي يستبين لك جماع الخصائص النادرة التي
عرف بها في حياته العامة...

للرجل افتنان في الأحاديث يتيح له أن يحوز بك آفاقا رحبا
في عالم الفكر، وله عون أي عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة،
وذلك عبقرى لا تردّه حدود، ونزعة إلى الاطلاع تعبئ
ولا ترؤى.

وإنه ليحاورك ويطارحك القول دون أن يفرض عليك وجهة

نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه والإقناع به ، قوى العارضة ،
طبيع البديهة ، مُسَكِّتِ الجواب !

كان « الباشا » بين الفينة والفينة يستريح ، وهو يدور بعينيه
حوله ، كأنما يتلصص من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس ، ثم إذا هو
يستأنف الحديث ، أندى صوتاً وأقذر على مواصلة الكلام ...

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لمحتُ سَمْتَهَا حتى عرفتُ
أنها قَهْرَمَانَةُ البيت ، تفصح ملاحظها عن إغريقية واضحة ...
دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جدّه بتحية المساء ، فما إن رأى
الطفلُ جدّه حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجدّ يبادلُه التحية
والعناق ، وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجمان في الوداعة
والسذاجة واللفظ ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر ،
لا يدرى أيتهما تحية الجد ، وأيتهما تحية الحفيد ؟

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هي إلا أن رجعت تحمل
قدحا في قرارته مُجرّعات الدواء ، فارتشفها الزعيم في طوع
واستسلام ...

وكنا بين حين وحين نسمع « الباشا » ينادى تلك السيدة ، راغباً
إليها في إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير

ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء ، رزينة السَّمْت ، موفورة النشاط ، تزول عملهم في جد وإقبال ... تغدو وتروح في خفة ابنة العشرين ، وإن كانت بادنة تقدمت بها السنون ...

إذا دَحَلَتِ الحجرة دبت بخطا متزنة عليها طابع السيادة والنأثر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعم وتسهر على راحته . لا ينازعها في مهمتها منازع !

وقد يرى الباشا ، منبريا يتحدث عن قصص القرآن وماله في شأنه من رأى . فإذا برغبة تهجس في نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت مناديا : تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أماننا ، كأنما انشقت الأرض عنها ...

إنها لتحرر رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطالب ، في أسرع من رَجْس الطرف وخطف البرق ...

حان وقت العشاء ، فاجئ ، لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة زودت بمعدّات الأكل وصحاف الطعام ، وأذكرتى هذه الطريقة أسلوب الإطعام الأمريكى في الطائرات والمطاعم المسماة في أمريكا : « كافيتريا » ...

وهالى ما حققت به صينيتى وصينية صديقى من أطعمه شبيهة بمختلفة الألوان ، فرفعت عيني إلى صينية « الباشا » فإذا أوضح ما فيها

قارورة مُلِئَتْ حَسَاءً بِمَجْمُودٍ يُؤْخَذُ مِنْهُ الْقَدْرُ الْمَطْلُوبُ لِيَذَابَ
فِي قَلِيلٍ مِنَ الْمَاءِ السَّخِينِ . وَبِجَانِبِ الْقَارُورَةِ صَحْفَةٌ عَلَيْهَا شَرَاخُ
رَقِيقَةٌ مِنْ شِوَاءٍ ، وَخَلْفَهَا صَحْفَةٌ فِيهَا قِطْعٌ مِنَ الطِّمَاظِمِ ؛ وَغَيْرُ
بَعِيدٍ صَحْفَةٌ ثَالِثَةٌ فِيهَا شِقَّةٌ ضَخِيلَةٌ مِنْ فَاكِهِةِ الشَّمَامِ . . .

والتفتت إلى الصديق أسأله فيما أرى ، فأخبرني بأنه لا يعرف
أن « الباشا » زاد في طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما
أسباب اللقاء !

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، توحى إليهم فيأتمرون ،
وتشير فينتهون . وما لبثت أن تولت بنا بالرعاية والتهديد ، تُلح علينا
في أن نأكل من هذه الصَّحْفَةِ أَوْ مِنْ تِلْكَ ، وَكَانَهَا بِذَلِكَ
تَسْلُسُكُنَا فِي عِدَادِ أَطْفَالِهَا الْمَدْلَلِينَ ، لِزَامِ أَنْ نَمْلَأَ الْبَطُونَ
لِنُسْكِبَ وَنَتَرَعَرَ . وَنَكْسِبَ رِضَاهَا الثَّانِي !

ويأطالما وقفت تُجَاهَ « الباشا » تَأْبِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَتَحْتَهُ
عَلَى أَنْ يَسْتَوْفِي حَظَّهُ مِنَ الطَّعَامِ غَيْرِ مَنْقُوصٍ ، فَلَا يَمْلِكُ زَعِيمُنَا
الْعَظِيمِ إِلَّا أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهَا بَصَرَهُ فِي صَمْتٍ هَادِيٍّ ، وَعَلَى مَحِيَّاهِ طَابِعِ
الْحَمَلِ الْوَدِيعِ !

وَفَرَّغْنَا مِنَ الطَّعَامِ ، وَحُمِلَتِ الصَّوَانِي ، فَعَادَتِ مَنْضُدَةٌ
« الباشا » إِلَى وَضْعِهَا الْأَوَّلِ :

كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب ...
ولاحظتُ أن «الباشا» يُعنى بهذه السكومات، وكثيرا ما مدَّ
إليها يده، يخشى أن يَسْدَّ منها شيء.

فنظرتُ إلى الصديق؛ فإذا «الباشا» يَفْطُنُ إلى ما دار في
خاطري من سؤال، فأخذ يحدثني عن هذه المنضدة يزهدني فيما
حوت أكبر تزهيد، ويهوّن من شأنها أبلغ تهوين، ولكنه في ثنايا
حديثه أشار إلى أنه ينهى أحدا أن يمسّ منها ورقة أو يكشف
عن مكنون، مهما يكن من أمر، وأنه يسط عليها الصحف واحدة
تلو الأخرى ...

فأدركتُ أن «الباشا» يتخذ الصحف دَرِيْشَةً تستخفي تحتها
ذخائر وكنوز، كما يتخذ الجندي أغصان الأشجار وألوان الرمال
في مناطق القتال، تهمية لما يرغب في سِستره عن العيون ...
سَطَّحُ هذه المنضدة طبقات، في كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد
تشابك بها ضروب من وقائع تاريخية وذكريات عزيزة وتعليقات
في علم وأدب وسياسة وتشريع، وكأن كل طبقة من هذه الطبقات
حَقِيقَةُ من التاريخ وكثرة من الزمن عامرة بالسكوان والاحداث
ذلك هو سر المنضدة، نكشف عنه الستار، وأمرنا إلى الله
فيما يكون من عتاب وحساب ...

عاد والباشا، إلى حديثه الطليّ، حتى مرّ هزيع من الليل، لم
نكده نصدّق أنه مرّ، ولولا أني آثرتُ راحة زعيمنا العظيم لما
صدّرتُ عن ذلك المجلس الذي أصبتُ فيه رفيعاً من إمتاع
السمع والعقل والروح...

وقفتُ خاشعاً أمام مُضَيِّفنا الكريم، آخذُ بيده أحبيه،
أحي قوة شَعَّتْ أضواؤها، فكان منها دستور، وكان منها
تشريع، وكان منها توجيه وطني آتٍ ومصر، أبرك الثمرات!
في تلك اللحظة انتظمتْني تلك النشوة العلويّة التي يستشعرها
المرء في مواقف الإكبار والتمجيد...

وخرجتُ راضياً عن نفسي كل الرضا، بما أكسبْتَنِيهِ
هذه الزورة من التسامي فترةً في أفق مثاليّ خالص من شوائب
الأغراض التافهة، وشواغل الحياة الرخيصة بما يَزُحِمُ دنيا الناس!
غادرتُ تلك الدار، وقد طوّفْتْ برأسي خواطر:

ذلكم زعيمنا العظيم، يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة،
قائماً فيها بتلك الحُجَيْرَةِ الزاجية ذات الأستار يقضي شيخوخته
النبيلة في حشد من ذكرياته المعطرة بالماثر والأجناد!

لم تمتد عين «عبد العزيز فهمي» إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها
البذخ والترف، بل لقد عفاً قادر أعن ذلك الضرب من كسب الحياة،

وآثر لسكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنَجْوَةٍ عن متاع خدّاع
مصيره للزوال !

أعجَبُ ما يروى عنك من خصائص « عبد العزيز فهمي »، ظمؤه
الدائب إلى العمل ، فإنه ليقضى أطول يومه في تلك الحُجَيْرَةِ
الحبيبة إليه ، عاكفاً على المصالعة والمراجعة ، كأنه مُوَكَّلٌ
بالحوامش البيض في الكتب يُنَمِّنُهَا بما يجري به قلبه من
ملاحظة وتعليق . . . وإن العمل ليمتد به حتى يطفئ على ليله ،
وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، وما برحت أقداح القهوة تُؤَا فِيه ،
وعُلبُ اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخدَم يتناوبون
خدمة ذلك المتعجّد اليقظان !

حياة « عبد العزيز فهمي » سلسلة من المغامرات في سبيل العمل ،
فهو لا يحل مشابة ولا يشترك في شيء إلا كان العمل رائده فيه ،
فإذا هو يثير حوله فورة النشاط والدُّوب . . .

هيات أن يكون سلميًّا في موقفه ، مكتفياً بملء كرسِيَّته ،
فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى في أدائها حيثما حلّ ،
مقتحماً في سبيلها أشتات العوائق والأشراك . . .

يجلس عضواً في لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .
ويهبط الريف ، فيثير فيه نائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .
ويتسنى ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة

يتمثل فيه استقلال الرأي وعبقورية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا
لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويُدعى إلى المجمع اللغوى ، فإذا هو السباق إلى ارتياد آفاق
جديدة تحدوه إليها حرارة العقيدة والمعية التفسير . . .

« عبد العزيز فهمي » ، في شيخوخته العالية فتيّ العقل ، طلاع
دائما إلى التجديد ، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة ،
لا يتهيب مواقف الاقتحام . . .

لا خلاف على أن « عبد العزيز فهمي » زعيم ، فإن زعامته ملء
القلوب والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز
خاص . . .

وكان محالاً أن يكون الرجل زعيما من ذلك الطراز المعروف
الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلتف حولها أشقات
الطبقات ، وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ،
وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف
إليه من أغراض وغايات . . .

ليس « عبد العزيز فهمي » بذلك الزعيم الشعبي ، فإن الزعماء
الشعبيين يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة
الحيلة ، وممالة الأحداث ، وتحسس الأهواء ، والتردد بين اللين

والعنف، طوعا لطوارىء الجزر والمد... وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفا فى مثاليته، صلبا فى عقيدته، متفردا برأيه، متحسنا فيما يتخذ من وسائل لبلوغ الأهداف.

و «عبد العزيز فهمى» مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحسّس، تلك الخصائص التى تجعله زعيما من ذلك الطراز الخاص الذى يُورى الزناد، وينفُخ فى الروح، ويبعث اليقظة، ويختطّ الطريق؛ ثم يدعُ لغيره من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجارب.

هو صاحب «فكرة» ي طرحها على أعين الناس، وليس عليه بعد ذلك أن ينافس فى تحقيقها، وأن يحتمل ما يقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحسّنون!

«لعبد العزيز فهمى» فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية، بما علموه من حدة نفسه، وعنف مواقفه، ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يُشأع فيها حقا أو يدفع ظلامه، ينطوى على «إنسانية» تتوهج فيها رقة العاطفة ورهافة الشعور... ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها «إنسانيته» العاطفية، أنه فى بيته لا يأبهُ له اثنان:

الطفل .

والقط .

خفيده إذا دخل عليه أخذ يعابشه في جسارة واجترأ ، وراح
يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن
مبلغ به الثورة إن ثار حداً يخاف !

وأما القط ، فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فإذا زجره لم يكثر
ولم يتحرج ، وربما سمع القط نأمة بعيدة من أحد من أهل الدار ،
فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقر القط في مكانه من مجلس
الزعيم إلا إحساسه بأنه في رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن
زجره بلسانه فلن يصيبه منه أذى !

لاستاذنا الأكبر تحية اعتذار ، ومودة إكبار . . .

طرحين

أسرة طيبة، تحيا حياة الريف الصميم، في قرية من القرى
الصميمة، بين ذُرِّيَّتِها طفل كسائر الأطفال، يظل إلى السنة
الرابعة من عمره يتنفس في جوّ الريف، ويعيش في منزل زاخر
بأهله، في رعاية أب هو العائل السيّد.

ولم تسكن حياة هذا الطفل مَظِنَّةً لتعقيد، فاضياها وحاضرها
ومستقبلها واضح لا يحتاج إلى كبير تفكير...

خطة في الحياة مقررة، ومنهج في الدراسة مرسوم.
ليس عليه إلا أن يسير في طريقه كأسلافه، وكن يعاصرونه
وكن يُلَوْنُه...

فقيه يتولى تحفيظ الطفل آي القرآن، ويُرْسِخُ في أعماق قلبه
جذور الإيمان.

إنه طفل كبقية الأطفال، وإن كان متميزاً بتوقد ذكاء،
ورهاقة حس، ولطف شعور...

ولكن ان يكون لهذا التميز أثر في حياة الطفل ، وفي نظام عيشه الراتب المقرر الذي يمتطّره في مستأنف العمر .

أقصى الأمان في نفسه وفي أنفـس أهله وذويه أن يكون من متقدّمى الطلاب في الأزهر المعمور ، فيؤهله ذلك لأن يكون شيخاً نابهاً من أئمة الدين وفقهاء الفتوى وعلماء الأحكام ، يخبّ في جيبه الفضفاضة ، وتتوج رأسه عمامة كبيرة تكفل له أهبة ومهابة ، فإذا الناس يلشّمون يده أفواجاً يستمدون منها طيب البركات .

ولكن حدث أمر ذو بان ، كارثة من كوارث الدهر ، وضربة من ضربات القدر ، التي يصيب بها الناس ، دون أن يدركوا لها كنهها ...

فقد الصبي بصره ، فكان في هذا الحدث فصل الخطاب في الغيب المستور .

إنه حدث ليس بالجديد ولا بالغريب ، فلطالما أصاب كثير من الناس ، دون أن يغيّر من مجرى حياتهم أىّ تغيير .

وقد كان في حسبان الأسرة أنه لم يغيّر من نفسية الصبي شيئاً ، وإن يكون له في مجرى حياته أثر ...

أكان العلم وقفاً على ذوى الأبصار ؟

أو ليس «الأزهر» يضم في رحابه جملة من نوابغ المكفوفين ، لم

يَحُلُّ فَقَدْ البصر بينهم وبين ما يشتهون من جاه العلم وَمَنْصِب الدين ؟
إذن فليمض الصبي في طريقه .

خطة في الحياة مقررة ، ومنهج في الدراسة مرسوم . . .

ولكن :

تقفون والفلك المحرك دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

أقبل الصبي على حياته ، وانطلق قَدْماً يوطد العزم على أن
يبلغ الغاية المقررة ، ويستوفي المنهج المرسوم . . .

هكذا قرر بعقله ومنطقه ، بيد أن قوة أخرى كانت تعمل
في الخفاء ، تعمل جاهدة مخزنة وقودها لميقات يومٍ معلوم ، تعمل
دون أن يدري الصبي من أمرها أي شيء . . .

كان عقله السافر يقول :

ليس لنا في الحياة إلا الاستسلام . سلبي القدر شيئاً عزيزاً ،

ولسكن بماذا يستطيع مخلوق مسير أن يجابه القدر ، وأن
يعاند مشيئته ؟

إلا أن عقله الباطن كان لا يأبه لهذه الفلسفة القائمة على أصول
منطقية مستقرة ، فجعل يضطرب ويضطرم ، متنكراً لتلك الأقدار ،
محاولاً أن يطلق جاحم ثورته للتغلب والانتصار . . .

ولم يكن لهذا العقل الباطن تدبير معين ، فقصارى جهده أن

ينطلق ، وأن يرفع عنه الـوقـر الذي يثقله ، وإنه ليعدّ عدته ،
ويتخذ أهـبته ، ويرتصد للفرصة السانحة فيما يستقبل من الأيام . .
وعلى الرغم مما كان يلقاه الصبي من حـدب وعطف ورعاية ،
لم يسكن بالفتى الضحـوك ، طلق المحيا ، مرح النفس . . .

أكان يضيق بهذا الحـدب والعطف والرعاية ، إذ يرى في تلك
المنـحـ مشاراً لشجونه ، ويعدّها علامـم مواساة وإشفاق ؟

احتبس الصبي في داره ، بل في زاوية قصية من هذه الدار ،
يقضى الساعات ساهم النفس ، مهموم الفؤاد . . . فلم تكن حياة
الدار بما يعتلج فيها من ضجة وصخب تبعث فيه أى إقبال ، فاستقل
في مملكته الصغيرة التي صورّها في خياله ، وسوّرها لنفسه ،
لتسكون له معقلاً يكفل له صفاء التفكير والمناجاة . . .

ساعات وحـدة طوال ، لا يعمرها إلا التأمل العميق . . .
فكان ذلك وقوداً حامياً يذكي ذكاه ، ويشق لخياله رحائب الأفق .
فتوهجت قريحته ، وصفا ذهنه ، وتسامت مخيلته . . .

كان نضج عقله يسبق نضج جسمه ، فتجلت مخايل رجولته ،
وهو في طور اليقاعة ، فتى السن .

وآن للصبي أن يدخل الأزهر ، يجاور . . .
واستقبل بواكير الشباب ، فانقاد بادية بدء للنظم السائدة ،

ولكن هذه النظم في الدرس والتلقين لم ترق فتى كانت الثورة
تخلق بين جنبيه ، ويوشك شررها أن يتطير ...

إن سدنة الأزهر ، يومئذ كانوا يريدون الطالب برّ ميلاً خالياً
يملاًونه بما تيسر من زاد متحجج متوارث ، حتى إذا امتلأ أحكموا
سده ، ثم ألقوا البرميل يتدحرج على مدّ رجة الطريق ، قائلين له :
فلتذهب على بركة الله !

إلا أن طالبنا الثائر لم يكن يرضى لنفسه أن يكون ذلك
البرميل المنشود ...

فهو يرى في برّ دته إنساناً ، وهبه الله عقلاً حياً يجادل به
ويناقش ، لا يقبل قضية دون تمحيص واستكناه .

ومن ثمّ راح يسأل ، ويلجّ في السؤال ، ويرُوع مسؤوليه بما
لا عهد لهم به من جرأة وتمرد على المألوف ...

فضاق به السدنة المحافظون ، واسكنه ما برح يجنأ
بسؤاله ، حتى أيقظ من حوله طائفة من رفقائه ، تجمعوا إليه ،
واشتركوا معه ، يسألون ويتمردون .

وما لبث طالبنا الثائر أن أصبح زعيم المستخطين الذين يريدون
« الأزهر » على أن يكونوا براميل تتدحرج على مدرجة الطريق .
وكان بديها أن تنتهي المعركة بخروج الطالب الثائر ، يلتمس
الهواء في أفق جديد !

بدأ الفتى حقبة من حياته ، حقبة حرية وانطلاق ... بيد
أنه أحسّ كأنما قد ألقى بنفسه في ببداء شاسعة الأكناف ، تعصف فيها
هـُوجُ الرياح ، لا يدري ماذا يكون مصيره في معركتها الدائرة ، فأذكي
من عزيمة ، وألهب من همته ، وخاض الغمار في حمية وحماس .

في تلك الفترة كان هناك رجل يعمل في ميدان حر ، لإنشاء
جيل جديد ، وبث روح أخرى غير الروح السائدة في ذلك العصر .
كان ذلك الرجل هو « لطفى السيد » ، وكان ميدانه صفحات
« الجريدة » و « دارها » ...

فصادف ذلك الميدان هوى في فؤاد طالبنا الثائر ، وما هي
إلا أن اندفع صوبه ، فكان فيه طليعة الفتيان !

وعرف طريقه إلى « الجامعة » الناشئة ، إلى ذلك المنهل الصافي
يستكمل فيه رِيَّه من علم وعرفان . .

وكانت حقاً مرحلة انتقال جلية الشأن في حياة الفتى الثائر . .

لقد أقبل يتلقى علوم العصر ومعارفه ، على مناهج مستحدثة ،
وأساليب لا عهد بها لمعهد القديم . . فتجلت نشطته ،
وتفتقت موهبته ، وأحس بالظماً المتجدد إلى طلب المزيد مما بين
يديه من بحث ودرس .

فضاقت « الجامعة » الناشئة عن تطلعه وطموحه . .

ولم تعد « مصر » تغنيه عما يريد . . .

فإلى كعبة العلم في « فرنسا » .

إلى « جامعة باريس » !

هنالك آفاق فساح من حرية التفكير ، وكنوز لا تنفد من المعارف والعلوم ، وأمواج دفاقة من البحث والتحقيق والتنوير .

فانبرى الشاب المظموح يعُجب ويتزود .

وكان ذلك مرحلة انتقال أخرى في التوجيه ، وخطوة واسعة

في سبيل التكمّل ..

وإلى هذه الحقبة ، يمكن القول بأن الحظ لم يُخْلِفْ ذلك

الشاب الموهوب ، على الرغم مما حاق به من ملاحظات .

ولسكن هذا الحظ يواتيه متألقا سخيّا ، إذ يهيء له اليوم

صاحبة كريمة ، ليست فرنسية بمولدها ونشأتها وحسب ، ولسكنها

فرنسية مثالية بثقافتها وفكرها ، مثالية يادرا كها المهمة الشريك في

حياة طلائع نزاعة إلى بطولة التجديد والبناء !

ومن ثم كملت للشاب أدواته ، واستقرت به الحال ،

وتوضّح له سبيله في مستقبل العيش .

فأب إلى وطنه ، يزاوّل العمل ، ويواصل الجهاد . . .

واضطلع بمهمته التي ادخر لها نشاطه ، وجنّد مواهبه ، مهمة

النداء بثورة في الميدان الأدبي ، والتبشير بمناهج حديثة في البحث

والدرس ، والعمل على رسم أسس جديدة يشاد عليها « مستقبل الثقافة في مصر » . . .

أستاذ في « الجامعة » يدكي في نفوس الطلاب شعلة التفكير ، وهو حيناً ياتي ضوءاً على جوانب من الأدب العربي ، وحيناً يشترع نهجاً للنقد الأدبي ، وحيناً يَدِينُ إلى قراء العربية زاداً من ثقافة « يونان » ، وحيناً يُجَلِّي لهم طرائف من نماذج الأدب الفرنسي ، وحيناً يسرد قصته في « أيامه » ، فإذا به يطرف العربية بفن أخاذ من القصص الرفيع لا يجاريه في روعته قلم . وهو إلى ذلك وغير ذلك كله رُوحٌ سارية وثابة نفاذة الأثر في البيئة العلمية والأدبية ، تدفع الأساتذة والطلاب ، وتوجه القادة ومن ييدهم زمام الأمور إلى دعم الثقافة وتوسيع آفاقها وإصلاح خطتها ، لتساير ركب الأمم في طريق الحضرة .

« طه حسين » ، مزاج قوى بين حضارتين متغايرتين : حضارة الشرق وحضارة الغرب ؛ وعصارة طيبة من معهدين مختلفين : « الأزهر » ، و « جامعة باريس » . . .

وإن أصوله مابرحت راسخة في حضارة « الأزهر » ، تستخلص منها عناصر غذاء لأعناء عنها ، ولكن فروعه تسامت فينانة في حضارة الغرب وثقافته ، تنسم منها الهواء ، وتستمد النور . . .

وربما تبدو أول وهلة غرابةُ الجمع بين معهدين وحضارتين
اختلفا كل اختلاف، ولكن المتمعن المدقق يرى أن ليس الجمع
بينهما بالمتعذر العسير، فليسا هما على طرفي نقيض...

إنهما يرجعان إلى نبع واحد، هو نبع المعرفة الإنسانية في
أصولها الأولى، والخلاف بينهما هو أن كلا منهما يتميز بما ليس
في الآخر...

هما عنصران أساسيان لشخصية الشرقى الذى يريد أن يصطحب
أبحاده التليدة وميراثه العظيم، دون أن يعوقه ذلك عن مسامرة
الركب الإنسانى فى طريقه إلى الأمام...

وإذا كان « طه حسين » قد جمع فى شخصه بين « الشيخ »
و « الدكتور »، فقصارى ما فعل أنه لأم بين نشاطين من ضروب
النشاط الذهنى للإنسان، وكان بهذه الملاءمة نموذجا مثاليا
للأديب الشرقى المعاصر.

وحسبنا — لى تتجلى مزية هذه الملاءمة — أن تتمثل « طه »
أزهريا استأثرت به أزهريته، أو جامعيا لم يكن له من الثقافة
العربية فى غمارها الملتطم نصيب. فإن الأزهري أو الجامعي
وحده قد يكون له أثره وخطره، ولكنه لن يكون تلك الشخصية
المثالية المكتملة التى نسميها: « طه حسين ».

ولعل واسطة العقد في شخصية أديبنا ، هي أسلوبه ...
ذلك الأسلوب الذي تفرّد به صاحبه ، وعزّ على من استهواهم
أن يحاكوه ...

ولست الآن بصدد العرض لمزايا هذا الأسلوب وخصائصه ،
فحسبي أن أشير إلى أنه أسلوب طريف ، راع الناس بجدّته
ومنحاه في التعبير والتأثير ، ولا أدلّ على ذلك من قيام الجدل حوله
بين الأشياع والنقاد ...

وما كان لأسلوب جديد مبتكر ألاّ يقوم حوله جدل
ونقاش !

ولسكن الذي لا جدال فيه أننا حين نُشيد باللغة العربية ،
وقد زهت في هذا العصر ، يطالعنا فيما يطالعنا على الفور :
أسلوب « طه حسين » !

فلا مريّة أن البيان العربيّ قد بلغ الآن من الازدهار مبلغا
عظيما لا يقل عما بلغه في أزهى العصور السوالف ، ولا مريّة
كذلك في أن نعدّ أسلوب « طه حسين » مظهرا رائعا من مظاهر
ذلك الازدهار .

الدكتور هيكل

لقيتُ «الدكتور هيكل» أولَ ما لقيتُه في «رأس البر» قبل ثلاثين سنة ونيف.

وإني لا أفنأ أذكر هذه الثلثية معترأً بذكراها أيّ اعتزاز، فهي ذكرى رؤيتي — وأنا في مطلع الشباب — لرجل كنا نتسامع به، ونقرأ له، ونترقب آراءه الوثابة الجريئة دون تعارف وصحبة. كان «الدكتور هيكل» مدار حديثنا نحن الشبان، ومُشار جدالنا في مجالسنا الصاخبة، وقد فتنتنا منه توجيهات جديدة في النقد والأدب والحياة، توجيهات مقتبسة من مشاعل الحضارة الحديثة في «أوربة»، يرجع فضل اقتباسها إليه وإلى رفقاءه من ذلك الرعيل الأول الذي عاد إلى الوطن يهتف بالشباب أن يحمل لواء التجديد، وأن ينتقض على عبادة الأصنام...

أذكر أنا هذه اللقاءة الأولى، وأجمعُ ظني أن «الدكتور هيكل» لا يذكرها، فقد كان في الحلقة التي ضمت نخبة من كبراء الرجال في (٥)

شرفة فندق « كورتيل » ، في ذلك المصيف الطريف . ولم أكن في هذه الحلقة إلا سامعاً لا يعدو طوره ، ولا ريب أنى كنت أشد إصغاءً ، للدكتور هيكل ، منى إلى غيره ، وكذلك كنت أكثر شغفاً به ، وإقبالاً عليه ، على ذلك الرجل الذى زفّ إلى الأدب العربى باكورة القصص المصرى ...

وما قصة « زينب » بـسيرة !

نحن الناشئة الذين كانوا يتطلعون يومئذ إلى لون من الكتابة يصف الحياة المصرية ، ويترجم عن نفسياتها ، لم نكد نلقف قصة « زينب » ، حتى نصبناها قبلة نحوطها بالتجلة والإكبار ، ونستهديها سنين الطريق ، فلا غرو أن يكون صاحب « زينب » مهوى الأفتدة ، ومطمح الأنظار .

راعنى أول وهلة من حديثه لهجة رصينة تقصّد في القول ، وتتجلى فيها حيوية الفكر . وما كان في هذه الفترة الباكورة من عمره بمن يهيمنون على المجلس ، ويديرون دفة الحديث ، بل لقد كان يبدو ضئيلاً بمنطقه ، لا يناقل الكلام إلا بقدر ، ولا يعدو داعية الضرورة ، فإذا تكلم سدّد وأغنى .

وقد انصرفت من مجلسى هذا ، وأنا أعتقد أن الرجل حبيى تكسوه صبغة الخجل ، ومما أكد لى ذلك المعتقد أنه كان كثيراً

ما يعتزل مجالس الفندق ، مؤثراً أن يعكُف على المطالعة .
وعجبتُ لهذا الرجل الخجول الصموت الركين : كيف يحول
قلبه تلك الجولات التي تنقذ نارها فتبعث الثورة في النفوس ،
حتى إن رعاة القديم كانوا يعدونه أمضى دعاة الجديد سلاحاً ،
وأعنفهم لساناً ؛ وحتى إنه ليبلغ في الجرأة والاقتحام ما لا يبلغ
سواه ، فيرى في الإصلاح الاجتماعي وفي نهضة الأدب وفي أسباب
الحياة آراء عارمة ، ويعبر عن نزعات هدامة ، وينحو في بيانه منحى
لا يتقيد فيه بموروث الأساليب ، إمعاناً في التحرر ، وإبعاداً في
إظهار الشخصية ، وجداً في الهرب من المحاكاة والتقليد . .

لعمرك ما كان خجلاً ولا حياءً ما توهمته أما كذلك حين رأيتُه
في مجلس الفندق . وإنما كان عفاقةً عن اللغو ، وكراهة للثرثرة ،
وصوناً للنفس عن سوانح الأحاديث . ومن ثم نأى بجانبه يخلو
إلى صخائف الكتب مغترفاً من مناهل العقول .

* * *

استهلّ الدكتور هيكل ، نشاطه محامياً ، وأعله ضاق ذرعاً
بتلك المحاماة الفردية التي تطالب بالحقوق الشخصية ، وتعالج ما بين
الناس من خصومة ونزاع ؛ فسمتُ همته إلى المحاماة العامة التي
تضطلع بالقضايا الاجتماعية الشاملة ، فتشدد حقوق الشعب أجمع ،

ولذلك انطلق في هذا الميدان الرحيب ، فظلت شخصية المصلح الاجتماعي هي الشخصية التي تطبع نشاط « الدكتور هيكل » منذ بزوغه حتى الساعة . وإن هذه الشخصية لتلازمه في مراحل حياته وجوانب عمله ، يأنسها الناس فيه أديباً ومفكراً وسياسياً وزعيم حزب ورجل دولة . . .

شعلة متقدة من النداء بالإصلاح ، ورغبة قوية في التحضر والنهوض ، لاتدع وسيلة من الوسائل إلا ابتغتها لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف .

لا يكاد يستردّه وطنه بعد رحلته في سبيل العلم الجديد ، وارتوائه من الأدب الأجنبي ، حتى يتلفت حوله ، ليرى : أين اللون القصصى في أدبنا العربي ؟

فلا يجد إلا تلك القوالب الجامدة التي علاها الصدا ، وأخلقها الزمن ، فينبعث مقدماً ذلك المثال الطريف من القصة العصرية ، كأنه يقول : إليكم جهد الابتكار ، وثمره الابتداع . فليكن شقاً للطريق ، وبذرة للفنّين الممشود .

ويرُوعه ما يرى من تخلف البلاد في المجالات الحيوية من تعليم واقتصاد ، فيُشْرِع قلبه معلماً كلمة الإصلاح ، داعياً إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة ، ولكن بصيرته النيرة تهديه إلى أنه لا سبيل

إلى نهضة ما كانت الأمة راسفةً في أصفاد التبعية والاستعمار ،
وأن أمة لا تلي أمرها بنفسها ولا تملك قيادها : عزيز عليها أن
تستكمل وسائل التقدم والارتقاء .

وإذن يجب أن يُعالج الداء في مكمته ، وأن تُبحث العلة من
جذورها ، فهيهات أن يتحقق للبلاد نهوض وتجديد إلا إن تغير
نظام الحكم ، وألقيت مقاليد الأمور إلى أهل البلاد .

فحق على المصلح أولاً أن يقتحم ميدان السياسة ، ويجاهد ابتغاء
الحرية ، ويدعو إلى تحطيم الأغلال ، وكسب الاستقلال .

وكذلك ألفتنا الدكتور هيكل ، كاتباً وطنياً يسدّد قلبه في
المعترك السياسي ، وما أسرع أن تجلت شخصيته في الميدان ،
وصادت مواهبه تربة خصبة تنمو فيها وترعرع ، فما كاد يقوم
« حزب الأحرار الدستوريين » حتى رأينا الحزب يصطفى « الدكتور
هيكل » لساناً ينطق باسمه ، ويعبر عن منازعه في صحيفته السيارة :
« السياسة اليومية » .

وكان الوقت عصيباً ، تغلّى فيه العواطف الوطنية ، وتفضى
بالزعماء إلى الفرقة والشقاق ، وتوجج بينهم دواعي التنافس والنزاع .
فكان اختيار الأحرار ، له في هذا الموقف الدقيق برهان ثقتهم
به ، وتقديرهم لسكفايته ، وتعويلهم على نصرته . وإنها المهمة ثقيلة

ألقيت على كاهله ، بيد أنه لم يعنى بها ، فسار بجريدة « السياسة »
على نهج صحفي غير مسبوق ، ورسم للصحافة اليومية في « مصر »
مثالا يضارع الأمثلة السكرية للصحف السيارة في العصر الحديث .
وفي هذا المنبر اليومي سنحت « للدكتور هيكل » فرص
الإفضاء بما تنطوي عليه جوانحه من رسالات البعث في شتى جوانب
المجتمع المصري ، فطالعنا « السياسة » أول مرة بصحائف أسبوعية
منوعة موقوفة على الدرس والبحث في العلوم والآداب والفنون ،
وانفسح صدر « السياسة » لخدمة الأقلام من زعماء الفكر يجولون
ما طاب لهم أن يجولوا في حرية وانطلاق .

وما انقضت أعوام معدودة حتى أحس « الدكتور هيكل »
أن رسالة البحث الأدبي والاجتماعي يضيق عنها النطاق المحدود من
الصحيفة اليومية ، وأن كثيرا من الأقلام يتطلب مجالا أكثر
سعة . فأنشأ « السياسة الأسبوعية » للوفاء بهذا الغرض ، ولعله
بذلك الصنيع قد شفى نفسه وأرضى ضميره ، إذ أفرد للعلم والآداب
مثابة لا تشوبها شوائب الحزبية السياسية من تشاحن وعراك ،
فهنا إليها كل قارئ مهما يكن مُتَّجِّهه السياسي ولونه الحزبي .
تلاقى في جنبات « السياسة الأسبوعية » قرائح الصفوة من

أعيان الأدباء والكتاب والمفكرين وأصحاب الفنون ، فكانت مجمعا ثقافيا يُموج بالدراسات والمباحث ، ويجلور ورائع تمثل طابع الفكر الجديد ...

وإن المخضرمين من الأدباء ليدكرون أن صحيفة « السفور » تجلت فيها طلائع النزعات الحديثة في الأدب والفن ، وعلى أنقاض هذه الصحيفة علا صرح « السياسة الأسبوعية » ، فرأينا كتاب « السفور » الذين لمعت أسماؤهم فيها يعاودون نشاطهم من هذا المنبر العتيق ...

لم تكن « السياسة الأسبوعية » لها صحفيا ولا عبثا ، وما كانت معرضا أنيقا لتزجية الوقت وتنعيم النظر ، وإنما خرجت بمباحثها ودراساتها كأنما هي جامعة ضمت مختلف الكليات ، فيها لكل طالب زاد . ولعلها كانت وليدة الضرورات والملايسات الاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن ، إذ كانت الجامعة الحكومية لما تزك في مهدها ، طلابها نفر قليل ، على حين يتطلع شباب العصر إلى المعرفة والتأديب ، فكان على « السياسة الأسبوعية » أن تروى ظمأ الجمهور الراغب في التثقيف والتنوير .

ضرب « الدكتور هيكل » في غمار الحياة السياسية ، فعجمت عوده ، وأورثته تجربة وحنكة ، وبصرته بالحياة الاجتماعية

وما لها من حقائق ودقائق . فلم يظل ذلك الشاب الطّرىّ العود ،
العائد من عواصم الحضارة ، الثائر على التقاليد وأوضاع المجتمع .
وأحسّنا بؤادر ذلك التطلع فيما يجود به قلبه من آراء
وتوجيهات عليها لوامع من الاتزان والاثناد ، تتجافى رويدا عن
تلك الهبات الثورية والفورات الجواخ في الدعوة إلى الهدم
والانتفاض . ومن ثم اكتسبت رسالته الإصلاحية مرونة
وطواعية ، واتخذت لونا من اللباقة والمسالمة .

وإذا كان « الدكتور هيكل » قد وخطه المشيب في غير إبانة ،
فلعل ذلك مرّده إلى تلك الجلسة المفروضة المحتومة يجلسها وراء
مكتبه كل يوم يدبج المقالة الرئيسة التي لا بد أن يطالعها الناس في
« السياسة » مع الصباح .

وما أشبه « الدكتور هيكل » في ذلك « بعبد الملك بن مروان »
إذ سئل :

لم أسرع إليك المشيب ؟

فأجاب :

كيف تنكرون على أن أشيب ، وأنا أعرض على الناس عقلي
مرة كل أسبوع ، في خطبة الجمعة ؟

فما ظنك بمن يعرض عقله على الجمهور الأكبر كل يوم ؟

وما ظنك به يعرضه مسجلاً ، مأخوذاً بما كتب ، مسئولاً عما
أبدى ؟

* * *

لم يكن مقال «الدكتور هيكل» ، إلقاءً للكلام على عواهنه ،
أو تصييداً للموضوع كما اتفق ، وإنما كان تعبيراً عن رأي ، أو تأييداً
لموقف ، أو مهاجمة لخصم . وهو في كل ذلك وليد تفكير سليم ،
ودراسة للموضوع وثيقة الصلة بالحالة الحاضرة ، وإحاطة شاملة
بمختلف العوامل والملايسات . وإنه إذ يكتب مقالة ليحس من حوله
العيون والأرصاد ترقب ما يلفظ من قول ، وتتأهب لحسابه أعسر
حساب .

* * *

على أن «الدكتور هيكل» ، لم تصرفه تلك الفريضة الموصولة
من المقالة السياسية الرئيسة عن ولعه الميكن بالأدب ، ونزعته
الأصيلة إلى حياة الفكر . فكان يَضَنُّ بوقت فراغه لا يبذله في هـو
أودعة ، وإنما يَغْمُرُه بتلك الفصول البارة في الموضوعات
الأدبية على اختلاف مناحيها ، فاجتمع له من ذلك الثمر مؤلفاته
الموسومة : « في أوقات الفراغ » ، و « تراجم مصرية وغربية » ،
و « جان جاك روسو » ، و « ولدي » ، و « عشرة أيام في السودان » ،
و « ثورة الأدب » .

وعلى جميع هذه الكتب يغلب طابع واحد، ومرمى متميز هو الجانب الاجتماعي. فهو يسجل « في أوقات الفراغ، أصداء خواطره في الحياة، وهو في « لدى، يخط فلسفة عميقة مناطها جوهر النفس وحقيقة الوجود. ولا يترك زورة « السودان، دون أن يقيّد فيها تلك الملاحظات البصيرة للحياة الاجتماعية هنالك. ولعل كتابيه « التراجم، و « جان جاك روسو، يكشفان لنا بواكير نزوعه وتطلعه إلى دراسة الشخصيات التاريخية الحافلة بعظائم الأمجاد.

فلما نمت تلك النزعة أثمرت فيما بعد أسفارَه القيمة في سيرة رجالات الإسلام. وما عنايته بأولئك الأبطال إلا إبراز لهدفه الأكبر في الإصلاح الاجتماعي، فإن الكشف عن جوانب هذه الشخصيات ومناهجها في بناء الأمة وممارسة الحياة جدير أن يهدي الناس، فيبصرهم بأسباب القوة والعزة، ويجنبهم عوامل الضعة والاضمحلال.

بينما كان « الدكتور هيكل، يتسنى مكانه من « السياسة، جازت البلاد بعهد الانقلاب الدستوري، فشاعت في المجتمع المصري صنوف الضغط والاضطهاد، فطوّحت فيما طوّحت بحريّة

« السياسة ». وكان نصيب « الدكتور هيكل » من فوائد هذه المصائب أن انزاحت عنه ضريبة المقالة الرئيسة في الصحيفة اليومية ، واستقرّ في بيته يحبّ من مطالعته ، فكان فيما قرأه آنئذ كتاب « درمنغم » في « حياة محمد » ، وما عثم أن استهواه ذلك التأليف ، فشرع يعرف به ، ويعلق عليه فيما بقي له من الحُطَام الصحفي ، أعني « السياسة الأسبوعية » . . .

والنبي « الدكتور هيكل » نفسه منساقاً إلى دراسة النبيّ ، كما نما عزّ عليه أن يسبق كاتب أجنبيّ إلى ذلك النقط الحديث من دراسة التاريخ الإسلاميّ ، كاتب أجنبيّ تعوزه أصالة المراجع ، وقرب المستقّى ، وتواصل الأنساب والمشاعر . فنهض هو يؤلف كتابه « حياة محمد » الذي يعدّ فتحاً جديداً في التراجم العربية . ولا غرو أن يطير لهذا الكتاب صيت ، وأن يسكون لذلك أثره في أنفس الكتاب العرب ، فإذا هم يسترسلون في تناول التاريخ الإسلاميّ ممثلاً في حياة أبطاله ، ويتفننون في التأليف على أنماط مستحدثة لم تكن تمسها الأقلام ، فعَـمَـرَت المكتبة العربية بنخبة طيبة من جديد التصانيف في هذا الباب .

وربما كان من البواعث التي أغرت « الدكتور هيكل » بوضع كتابه أنه وجد « درمنغم » على فضله وجهده لم يوف الموضوع

حقه ، وأن النبي لم يُنصف في كثير من كتب الأجانب على وجه عام ، بل لقد أثرت حوله شبهة تغض منه لا يُقرها حق . فانبرى في كتابه يدفع تلك الشبهة ، وينصب الميزان بالقسط لتلك الحياة الفريدة في عصور التاريخ .

وخليق بالإشادة ما قصد إليه « الدكتور هيكل » من إبراز حياة النبي صلوات الله عليه في صورة إنسانية محضة ، ليس فيها إغراق في الوصف ، ولا نبوءة عما هو مألوف من طبائع البشر . وإن في ذلك حداً فاصلاً يفرق بين ما كُتِبَ بالأمس عن النبي وما جرى به قلم « الدكتور هيكل » في ذلك الكتاب . كان التوفيق حليفه في الملاءمة بين طبائع البشرية وخصائص النبوة ، وما كان أحوج الأمة الإسلامية إلى هذا التصوير الذي يجمع بين الحُسْنَيْنِ في دقة تحقيق ، وعدالة حكم ، وخلوص من شوائب الأهواء .

ولم يسكن عجباً أن يلقى هذا الكتاب ما لقيه من إقبال ، وأن يكون في ذلك ما يغري « الدكتور هيكل » باقتحام كنوز التراث الإسلامي الذي تحجبه الأوراق المصفرة ، والأساليب القديمة المستعصية ، فاندفع في مطالعته مسترسلاً في التحيص والتخليص ، والتنوير والتبصير .

وأذن مؤذن الحج ، فأحس « الدكتور هيكل » شعوراً غلاباً
يحضه على اجتلاء معالم الذكريات ومواطن الأحداث التي حلق فيها
فكره أثناء تأليفه « حياة محمد » ، فاستجاب لهواتف نفسه ، وانخرط
في غمار الحجيح يؤدي المناسك ، ويتملى في نشوة وشغف تلك
المعاهد المقدسة ، مُتَفَسِّماً عَبَقَ التاريخ الإسلامي في انبلاج
صباحه ، وانبثاق دولته .

وجاشت في قرارة نفسه روح الفنان ، فما إن آب من حجته
حتى ألنى قلبه يترجم ما انطبع في سريره من مشاهد ومشاعر ،
فاتسقت له تلك الفصول الرائعة التي ضمنها كتابه : « منزل الوحي » ،
تشيع فيها حرارة الوجدان ، ويتجلى صدق التعبير .

ولا معدى للناقد أن يسعد هذا الكتاب ختام عهد من الحياة
الفكرية « للدكتور هيكل » ، وفاتحة عهد جديد لهذه الحياة واضح
المعالم والسمات . فقد انطوى عهد الشباب النزاع إلى الهدم ،
الشوَار على مألوف الأوضاع ، وانفتح عهد الرجل الذي تسوده
الطمأنينة والإيمان ، ذلك الذي يرى أن الاستمسك بالمحافظة ،
وإذكاء النزعة الدينية ، والهتاف بأجناد القديم ، لا يعتاقُ خطي
الامة ، ولا يتخلف بها عن الركب السيار إلى الامام . بل لعل

ذلك مما يعين الأمة على أن تستهدي بمقومات تستلزمها شخصيتها
مستقلة واضحة التميز .

مضى « الدكتور هيكل » في هذه السبيل صادق العزم ، يجلو
التاريخ الإسلامى ، 'مُحِبِّباً إلى العقلية الحديثة ، مرضياً عنه من
المناهج المعتمدة في البحث والدرس والتحليل ، فأخرج كتابيه :
« الصديق أبو بكر » ، و « الفاروق عمر » وما يزال بين يديه برنامج
متراحب الجنبات ، موصول الحلقات ، يوغل فيه كما يريد .

وقارىء هذه الترجمات التاريخية يرى « الدكتور هيكل » فيها
كأنما يرضى ميله النفسى إلى الحياة السياسية ، فهو في هذه الحقبة من
تاريخ الدولة الإسلامية أمام جملة من الأحداث الفاصلة ، يسكث
فيها القواد والزعماء ، وتتناوح الآراء والأهواء ، وتتنازع الفرق
والأحزاب . فالجمال بين يديه خصيب للموازنة والمعارضة والترجيح .
ومن ثم يتابع في هذه الآفاق التاريخية حياته السياسية ، ويمارس
تجاربه في تقلب وجهات النظر ، ودراسة الخطط ، ونقد
الحكومات والحكام !

وهيأت الأقدار « للدكتور هيكل » أن يكون رجل دولة :
وزيراً فى وزارات شتى ، وزعيم حزب سياسى ، ورئيس مجلس
برلمانى ، وقد تقلب فى هذه المناصب ، فما أحالت خلقه ، ولا طغت

على روحه ، ولا طوعته لنظام مفروض ، وطابع مرسوم . فهو
في جميع تلك المناصب يُظَلِّها بشخصيته فيسبغ عايتها ما يريد من
توجيه وإدكاه ، ولم يستطع واحد من مناصبه التي تسنمها أن
يطويه تحت جناحه ، أو أن يملك قياده .

ذاك لأن « للدكتور هيكل ، فلسفة خاصة في ممارسة الزعامة
ومزاولة الحكم ، فعقليته الحرة الطليقة لاصبر لها على أن تتقدم
برنامج تخطه ، ومنهج تترسمه ، بل إنها روح تسرى في جوانب الأعمال
فتبعث فيها اليقظة ، ونفث عنها العوائق ، وتيسر لها وسائل الإنجاز .

ولست تراه إلا معنياً بالسياسة العليا لتوجيه المناهج والمشروعات ،
واكلا إلى أعوانه وضع الخطط العملية وتنفيذها وفق هذه
السياسة ، متلافياً بالمعينة ولما حافطته ما يكون فيها من عوج .
فهيات أن تطلب منه عكوفاً على رسم خطة موصلة . لها بداية
ونهاية ، لأنه رجل بسمو ذكاؤه وطلاقة عقله فوق الحدود والقيود .

كان يوماً على دسنت وزارة المعارف ، فأني أحمال الأضيير
والاضاميم تنتظره ليرى في كل ورقة تحويها رأى الوزير ، فأزاع
عنها بصره ، وانتبذ من المكتب مكانا يخلو فيه إلى التفكير والتدبير ،
ونمختصت جلساته عن منشورات في التوجيه لسياسة التعليم ،
ما أسهب بمقالاته الرئيسة التي طالما جاد بها قلبه ؛ ولعله حسب نفسه

يومئذ أنه لم يفارق بعد مكتبه في جريدة « السياسة » وأنه مازال
رئيس تحرير ، يجب أن يقدم زاد الجريدة في موعد مضروب !
أتاحت « للدكتور هيكل » في مطلع نشأة كريمة ، واتفقت له في
شبيبته صحة كريمة ، فاكتمل من الخصال الاجتماعية صفوة مهذبة
أعانتها على أن يكون مثلاً لرجل السياسة الرفيع فيما يأخذ وما يدع .
لقد صاحب « عبد العزيز فهمي » و « لطفي السيد » و « عدلي »
و « ثروت » و « محمد محمود » وأضرابهم من رجالات تفرد كل
منهم بعبقريته خاصة ، وامتازوا جميعاً بعظمة النفس ومثانة الخلق .
أظهر ما يتجلى من أخلاق « الدكتور هيكل » أنه رحب الصدر ،
فيل الخصومة ، لا تفوته الفرصة السانحة ، ولا يئأس من استدراك
مافات . فهو مرن فيما يواجهه به الأحداث ، يتحيل للوسيلة ،
ويتفطن لدواعي التأثير والإقناع .

وما لا خلاف عليه أن « الدكتور هيكل » يبلغ من « ديمقراطية
النفس » ما لا يبلغه غيره من زعماء السياسة ورجالات الدولة . فهو
متواضع صادق في تواضعه ، وديع أصيل في وداعته . وربما كانت
هذه الخلقة مثاراً للنزاع الدائب بينه وبين مطالب الزعامة في
سلطانها الغلاب !

منصور فهمي

إذا أحضرنا في مخيلتنا عصر ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وما كان فيها من وثبة فكرية وتطلع اجتماعي ، تجلى لنا على الفور لوحٌ منصورٌ يتلاقى فيه صفوة من نبهاء الشباب ، من بينهم : « هيكل » ، و « طه » ، و « ضيف » ، و « عزمي » ، و « منصور فهمي » .

وعجبٌ أن يتلاقى هؤلاء في إطار واحد ، على الرغم مما بينهم من تفاوت في النشأة ، واختلاف في الدراسة ، وتباين في الأهواء والأهداف .

ولكن ثمة آصرة جمعت بين أولئك ، ووحدت كلمتهم لإعلان راية الفكر في « مصر » .

لقد كانت تسرى بين جنوبهم جميعاً روح فتية تهدف إلى ابتعاث أمة جديدة ناهضة ، وبث حركة فكرية في شتى مناحي المجتمع المصري من سياسة وثقافة وأدب واقتصاد .

هذه الصفوة السكريمة كأنما كانت عُصبة قوية خرجت إلى مثابة

الحضارة في «أوربة» تتضلع من زاد العلم والمعرفة ، وترتوى من
مناهل الحرية ، حتى إذا آبت إلى الوطن تسنى لها أن تستخلص
الأمة من موقفها المتخلف ، وأن تغذّيها بدم جديد ، وأن تُشيع
فيها أسباب اليقظة والقوة والتحضر ، فتمضي في ركب الإنسانية
إلى الأمام .

إن هذه البعثة لتُعدّ الثانية بعد الرعيل الأول الذي بعثه
« محمد علي » إلى « أوربة » ، إبان حكمه ، وإن تأثير هذه ليمائل تأثير
تلك ، من حيث إشاعة النور في ربوع الوطن ، وتنشئة جيل
جديد .

ما إن عاد هؤلاء الشبان — الذين أصبحوا فيما بعد قادة
الفكر — حتى أحسّنا نشطة تدبّ في كيان الأمة ، ويقظة تهز
أوصالها ...

كان لهم في كل صحيفة مقال ، وفي كل حفل خطاب ، وفي كل
معهد درس ، وفي كل اجتماع حديث ، وفي كل حركة أو دعوة أو
عمل توجيّه أو إحياء أو ساعد أشدّ ...

وسرعان ما التف حولهم الناشئة أنصارا وشيعة ، يرتشفون
من معين فسكرهم الدفاق ، فتخلقت مدرسة هي « مدرسة
التجديد » هدفها الحرية الفكرية ، وإقامة دعائم قويمه يعتلى بها صرح

النهضة القومية ، وتستردّ بها « مصر » مكانتها في الصف الأول من الأمم الحيّة . . .

سطح « منصور فهمي » بين هؤلاء نجما لسمّاح اللائع ، وتسامى عليها قوى الحقوق تتطلع إليه الأنظار .

رحل إلى « أوربة » لسكى يعود أستاذا في « الجامعة » الناشئة ، ولكن كان أن عاد ليعمل خارج « الجامعة » ، بعض الوقت ، فإذا به يؤدي في المحيط الثقافي والصحفي رسالته الجامعية ، رسالة التجديد والتنوير ، ناشط الفكر ، قوى الأثر . . .

إن نظرة خاطفة إلى معالم حياته لتجعلك تلمّ بعناصر تكوين نفسه ، وما جُسِّل عليه من خُلق . . .

تقلبته الحياة ، ولم يكن له الحظ مطواعا كل حين ، ولكنه أفاد من إخلاف حظه حيناً ومن تقلبات حياته المختلفة ، فلم تمرّ به مرحلة من تلك المراحل عبثاً . . .

كان يطلب العلم في « فرنسة » ، فلم يكن ذلك الطالب الذي يحشو رأسه بالمعلومات ليظفر بالإجازات ، يرى فيها غاية المُنَى وفصل الخطاب ، وإنما كان يدرس ليتفهم ويتفطن ، وليمايز بين حضارة الشرق والغرب ، وياوازن بين ما يتلقّى من المبادئ والقواعد والآراء وبين واقع الحياة في دنيا الناس .

لقد جاوزت دراسته نطاق المسموع والمقروء إلى نطاق المشهود
والملموس . . .

لقد رمى بنظره وراء الكتب والمحاضرات ، فمضى ينفذ بين
أمواج الحياة ، ويسبر أغوار المجتمع .

وأخيرا دارت فلسفته حول محور « الخير والشر » ، في طبيعة
البشر ، ومدى استطاعة الإنسان أن يستكثر من الخير ويتجنب من
الشر بما يستمسك به من أصول الأخلاق .

في نطاق هذه الفلسفة عاش « منصور فهمي » حياته الثقافية ،
وفي ظلها نما وبنى وشاد .

كان « منصور فهمي » - وهو طالب في « باريس » ، متوفرا على
الدرس والبحث - كاتب « سر » المغفور له الملك « فؤاد » ، وهو يومئذ
أمير نزيل « باريس » . فلها قفل الدكتور الشاب إلى « مصر » ،
خاض غمار الحياة ، فمرة هو في « جمعية الهلال الأحمر » ، من أركانها
ويوما هو في « مدرسة الحقوق » ، أستاذ نابه الذكر ، وهو في اليوم
بعد اليوم كاتب فياض القريحة ، أو محاضر سخي البديهة ، أو محدث
يتميز حديثه بالطلاوة والحرارة والجدة .

ثم استقر به المقام في « الجامعة » التي أعد لها ، وخُلقت
لأمثاله ، يصوغون فيها من ناشئة الوطن ذلك الجيل المنشود .

ولا مِرية أن الفترة التي قضاها في صحبة الملك « فؤاد » في « أوربة » وفي « مصر » ، وأن اتصاله بالجماعات والمؤسسات العامة كان له في نفسه أثر ملحوظ ، فقد بصره ذلك كله بالحياة الاجتماعية ، وأكسبه مرونة السياسة وحنكة الاشتغال بالشئون العامة ، وعلمه كيف يسير النظم العملية ، ولا ينساق في أودية النظريات تشيع فيها أوهام الخيال .

وليس عجيبا أن نرى « منصور فهمي » ، بعد أن عرك الحياة في حقائقها الواقعة ، قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشاطاته بصبغة المحافظة والاستمسك بمأثور التقاليد وموروث القوميات ... وقد بلغ في هذه السبيل مبلغا يسر لبعض المتطرفين ، ممن فتنتهم خلافة الجديد وخطفت أبصارهم أضواء المدنية الحديثة ، أن يأخذوا عليه هذه الروح ، وأن يصفوها بالترمت الذي يسوق صاحبه إلى الرجعية وتقديس القديم .

ولكن الحق أن « منصور فهمي » قد اختط لنفسه خطة واضحة في توجيه الحركة الفكرية .

خطة تأبي الثورة والانتفاض ، وتؤثر الهوادة والرفق في ملامة التطور والانتقال من حال إلى حال ، وتوصي بالتبصر في ترك ما نترك من القديم ، وفي قبول ما نأخذ من الجديد ...

خطة تنكر التفريط في أيّ شخص من مشخصاتنا القومية ،
وترى في هذه المشخصات عصمة للأمة من التّسميع والانزلاق
وإهدار السّكّيان الخاص .

خطة تعتزّ بجوهرة الشرق الغالية : طابعه الروحي ، فلا مناص
من إعلاء الروح على دعائم من العقيدة والإيمان ...

درس « منصور فهمي » الفلسفة وما يتصل بها من فروع العلوم
والآداب ، ثم شرع يدرّسها في « الجامعة » ، ولكنه لم يكن يلقيها
دروس معلومات ومقررات ، وإنما كان ينفذ في دروسه قلبه
وعقله وفكره ، فيبث روحه في أنفس طلابه ، ويشير بين
جوانحهم رغبة البحث والتّطلع والتأمل ، توصّلا إلى تعرّف اليقيم
الإنسانية في حرية وإخلاص ...

ولعل مرّد ذلك إلى أن حياة « منصور فهمي » ونفسيته
موصولة أوثق اتصال بما يدرسه من الفلسفة ونواميسها ، ولا سيما
الجانب الأخلاقي منها .

وعنده أن الفلسفة ليست نظريات وأخيلة ، وإنما هي وسائل
تبلغ بالإنسان مراتب من حياة نموذجية رفيعة تدنيه من الخير بمعناه
العام ، ومن السعادة في ممثّلها الأعلى ، فهو يحاول أن يطوّع الحياة
الواقعية لتلك الفلسفة المقررة ...

وما حياته الشخصية إلا الصراع الأول لتلك المحاولة، فهو أقرب
شبهاً بمن يكتشف لوناً من الدواء، لا يطمئن له بال إلا إذا زاول
تجربته في نفسه خاصة...

تَوَّاصِلَ نشاط «منصور فهمي» عشرات من السنين، نشاط
فكري واجتماعي موفور الثمرات، ومن عجب أن هذا النشاط في
ذلك الزمن الطويل لم يُسَجَّل منه حتى اليوم إلا نشاط ساعات
قليل، حواه كتابه القديم:

«خطرات نفس»

لك أن تسميه كتاباً، ولك أن تسميه صوتاً منبعثاً من قرارة
النفس، ينبغي أن ينفذ إلى قرارات النفوس. ولك أن تسميه سمرّاً
رفيعاً يتحدث به صاحبه إلى الناس حديثاً عامراً بضروب من
التأملات واللفظات في الحياة والأخلاق.

لهذا الكتاب قيمته فيما سجل من آراء وخواطر، وفيما
تستشعره فيه من نبضات قوية تحفّق بها الصفحات.

ولكن ثمة ميزة في هذا الكتاب جديرة أن تكون موضع
التقدير من مؤرخي الأدب في نهوضه الحديث، تلك هي ميزة
التعبير والتصوير...

كانت العربية في فواتح هذا القرن تعاني فوضى المعاني وشرود

الألفاظ ، فكان يعوزها التحديد والتركيز ؛ حتى يؤدي كل لفظ معناه الخاص ، وحتى لا تلتبس المعاني وراء زخارف الألفاظ ، يجاهد النفس السكرام من رواد الفكر في تخير الكلمات وضبط دلالاتها على مختلف المعاني .

وإن أسلوب « منصور فهمي » في « خطرات نفسه » هو مظهر من مظاهر التوفيق في هذه السبيل . فهذا الأسلوب يُعد نموذجاً للبيان العربي في طوره الجديد . . .

وكذلك لم تكن « المقالة » في مطلع هذا العصر — على وجه عام — إلا مجموعة معلومات واستطرادات واستشهادات في غير نظام أو تنسيق .

فَنَهَدَ لها أولئك النفس السكرام ، يجعلون كل مقالة محدودة الفكرة ، محدودة المعنى ، واضحة الغرض ، حتى تسنمت تلك الذروة التي نراها في عهدنا الحاضر .

وإن هذه « المقالة » لتدين « منصور فهمي » بأنه في طليعة من أحلّوها هذا المقام الكريم . . .

لم تنته « خطرات نفس » بذلك الكتاب الذي تلقفته أيدي القراء ، وإنما هي أجزاء تتوالى وتلاحق ، يرسلها منصور فهمي في أحاديثه وخطبه يوماً بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة .

وإنه لتروعك منه صلابة في الدفاع عن حق ، أو الانتصار
لفضيلة ، صلابة قد تُشعرك الرهبة والهيبة ، ولكن سرعان
ما تنكشف لك تلك النفس عن طيبة وتطامن ودماثة طبع ، حتى
لتكاد تأنس منها ببراعة الطفولة .

واعل هذا سرّ قوة الرجل ، فإنه ليجمع في إهابه غضبة اللبث
ووداعة الحَمَل ، ترى منه الجرأة والصلابة والإباء في المواقف
التي تتطلب ذلك منه ، فإذا تجافيت به عن تلك المواقف ، تجلى لك
جليساً لين العريكة ، إنساني الروح ، شاعري الحديث .

لحياة « منصور فهمي » عنوان جليّ ، هو : « الصداقة » !
الصداقة التي تحوى ضروب الفضائل الأصلية الغالية من وفاء
مكيين ، وإخلاص محض ، ووداد مُصَفَّى .
وإن « منصور فهمي » ليسخو بصداقته ، حتى لتراه : صديق
قلبيده ، صديق مرموسه ، صديق عثيره ...

إنه لصديق أريحيّ ، في نَبْع صداقته لكل من يرجوها نصيب !



أحمد ابن

أكنت سائرا ضاحوة يوم في شارع قصر العيني ، فصادفت
امرا يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هين المشية ، خاشع
البصر ، يتلفت في مراقبة وحذار ، كأنما يستخفي عن أعين الناس ؟
لو تاح لك أن تصادف امرا هذه صفته ، لجرى في خاطرك
على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين نعتهم بطيبة النفس ،
وصفاء النية ، والكف عن الضرب في غمرات الحياة ،
ولحدثتك نفسك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه
بين أهلها غريب !

والعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة
من التوسم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثر خطاه ، تريد
استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سمات غير مألوف .
وما هي إلا أن ترى الرجل قد عرج على دار المجمع اللغوي ،

وأخذ يتسامى على سلمه ، متلقيا من حوله تحايا الاستقبال ، وهو
يردّها بأحسن منها في وداعة محببة تجلوها ابتسامة خفيفة ،
وإنك لتجده يسخوب هذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء
بدرجةٍ سواء .

ويستهويك ما تشهّد من أمر الرجل ، فتتابعه في مسيره ، حتى
يُسَلِّمَكَ إلى قاعة مديدة تغصُّ بمنضدة مبسوطة ، قد ترصّصت
عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجحجم أثرية ضخام !

وثمّة ترى صاحبك قد أوغل في القاعة ، حتى إذا بلغ منها
مكانا قصيّا ، اتخذ مجلسه في سكينه وركون ، كأنه يخشى أن
يشعر بمقدّمه أحد ، وما أسرع أن يمدّ يمينه إلى سفر من
هذه الأسفار ، فيقلب من صفحاته لحظات ، ثم يمسك عنه ، وقد
تكش في مجلسه وأطرق ، حتى لتهقول أغنى !

وتعمّر جوانب القاعة بالقصّاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب
الرفاق أطراف النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأي حامية الوطيس ،
وصاحبك على حاله ، لا تنبس له شفة ، ولا يطرف له جفن ،
فتمسب أنه ساهٍ عما حوله ، لا يجري شيء منه بباله ، فتركه وشأنه ،
ويشغلك التحاور والجدال . وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعك
صوت يختلج مترفقا يحاول أن يجد له طريقا في ملتطم ذلك الزحام ،

فإذا تبينَتَ القائلَ عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ،
فتأذَنُ له وأنت عليه مشفق ، فيروءك أنه قد استبطن الصميمَ
من البحث ، وأنه يجمع لك في فقرات ما تشعَّت من أطراف
الرأى ، ولا يُعَتِّم أن يُلْهِى بك إلى حكم تأنَّس إليه النفوس ،
وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التي تصطرع
فيها عقول ، وتَسْطِيع بدائمه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة
العتيقة التي تبرز على حائط القاعة ، وما أنت لو استشرتْها بمستفيدٍ
ضبطاً لوقتكَ ، فإنما هي ساعةٌ بجمعية ، كأنما أُعْلِيَت في مكانها
السهريء بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن !

ولتَجِدَنَّ المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما
اشتدَّ اشتباكها واحتدَّ ، وأنت معقودُ العين بصاحبك ، تقفُو
مشاركاته فيما يترامى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح
لك شيئاً بعد شيء ، وكأنك تجتلي كتاباً شائقاً جداً شائق ، كلها قلبت
من صفحاته ازددت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !
إنه في شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سمِّته ، فهو أبداً
هادئ القسيمات ، رفيق الإشارة ، أُرْيَحِيُّ الروح ، يتميز بذلك
الصوت المختلج الحي وليكنك تستبين من وراء ذلك كله

إيماناً منه بفكرته ، وثباتاً في تعزيزها ، وإباقه في الدعوة إليها .
وإذا بهذا الرجل الذي رأيته أولَ ما رأيته متكشاً مستوحشاً ،
فحسبته بمن لا حظَّ لهم في معترك الحياة — قد تفتَّق إهابه عن
زعامة بصيرة قادرة تنهيج لها طريقاً لا عِوَج فيه .

وتعجَّب لصاحبك ، وقد استحرَّ نقاشه ، وجعل يطارح
رفاقه مصطلحات العلم في صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دسَّ بين
هذه الصخور والجنادل — في الفينة بعد الفينة — مُلْحَحةً فسكيةً ،
أو مُزْحَحةً طريفةً ، لا تلبث أن تُشِيع في جوِّ المجلس نَسْمةً
من الطرب والمراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة
وقاره ، يجيد ما يجيده ، ابن البلد ، من خفة وظرف وإيناس ، فهو
يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن سيدة » ، أو القاعدة
المعقَّدة « لسيوييه » ، نكتة ضاحكة ، أو دُعاة لطيفة ، تحيل
تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار ...

ولا يكاد ينتهي بك المجلس الأول في صحبة الرجل ، حتى يغريك
ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد .

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » ، في كلمة ، قلنا :
إنه « بَنَاء » !

ولقد ملكتُ هواه نزعةُ البناء والتشييد ، واولع بها أيما

ولوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاوِل ويمارس ، وطورا يشرف ويرعى ، وحينئذ يحض ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » في نزعته ، أنه اجتماعي عصري ، وأنه واقعي عملي ، إذا علّنت له فكرة رسمها في ذهنه أدق رسم . وجعل لها خطة محكمة ، وقدّر لها كل ما عساه يكون من أقدار ولا يكاد يدّيه ليضع الحجر الأساس لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الرغبة الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلو دعائمه ، وإذا هو حصن للقرايح والعقول .

وعبرية هذا البناء العظيم تتمش في أنه يجعل لنزعته طابعا من التجديد لا معالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بذاته عتادا من كنوز الشرق وأمجاده ، ولسكنه يقيم على هذا الأساس طرازا تتوافر له كل مزايا التحضر العصري والعمران الحديث .

وهذا البناء العظيم يرمى دائما من وراء سعيه إلى هدف مرسوم . ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغي بها تجديد العقلية العربية ، وإمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان في سيره الحديث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ،
ولا يمل أن يدور . وكان هذا المحور مغزلاً يستمد منه الخيوط
ليفسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلبه .

اقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصيّنوَيْه : « الضحى » و « الظُّهر »
تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين في مواضع الحقب ، ولكنك
تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح
الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو
لك منهاج الفكر العربي في تطوره وسموه ، ويُمِيط الغبار عن
معالمه ، ويريك الضوء من مصابيح !

ولم يكن عَجَباً أن يُشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام
الذين هم طليعة النهضة في الشرق الجديد ، وإن كتابه « زعماء الإصلاح
في العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يُعنى أكبر ما يُعنى في
تأريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من
جهود في سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفي نشر رسالة التجديد
وإليك كتابه « فيض الخاطر » ، لكأنه « فلم » سينمائي تتوالى
فيه الصور والمشاهد ، « فلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء »
الداعي إلى الإصلاح لكل ما يلابسه في الحياة والمجتمع . وإنها
لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قِبَسَةٌ من الفن في

العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — في شخصية هذا العالم الدارس — صبغة الأديب الفنان.

وأنت لو تصفحت مختلف الجوانب من شخصية أحمد أمين ، لطلعت عينك صورة قاض تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام ، وأكرم ما فيها من خصال النزاهة والعدالة ويقظة الضمير .

إنه قاض في خاصة شأنه مع نفسه ، قاض في حديث مجالسه ، قاض في الجامعة أستاذاً وعلى مكتبه رئيس عمل ، قاض في معاملاته مع الناس بين قريب وبعيد ، قاض فيما يجرى به قلبه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية في بواكيرها ، حين شب شباً به ، فأرادت له أن يكون أحد قضاة الشرع ، يفضل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . . ولكنه لم يمكن في منصب القضاء طويلاً ، فترك ذلك الميدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقاً لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث في دنياه ، على اختلاف مناصبه ، وتنوع مجالات نشاطه ، تملكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فكره ما وسعها أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وسّمت حياة الرجل في مناحيها

العقلية والاجتماعية بِسِمَةِ الاعتدال ... فهو معتدل أبداً في
تقديراته وأحكامه ، معتدل أبداً في علاقاته ووشائجه ، لا يجمع
في القسوة ، ولا يتراخى في اللين . يحبّ حين يُحبُّ هوناً ،
ويُبغِضُ إذا أبغضَ هوناً . أنأى ما يكون عن التعصّب
والتحزّب ، آنفَ ما يكون للسّرّف والتطرّف ، أميلَ ما يكون
إلى المواقعة والحُسْنَى !

والعَجَبُ العاجب في شخصية ، أحمد أمين ، أن نشأته قد
اكتنفتها كلُّ دواعي التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليـ
د صارمة ، وتعاليم جامدة ... ولكن فكره توهج والتبع وسط
ذلك كله ، كما يتلأأ الجوهر النقيّ ، وخرج يلتمس الطلاقة في
الآفق الرحيب ... فإذا اتسنا الآن حرية الفكر بين القادة
الأعلام ، ألفيناه منار الطريق .

العقاد والمازني

هما اثنان :

أحدهما سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع
اليدين ، تلتمع عيناه حزما واعتزاما ، ويقتلع خطاه في مسيره
اقتلاعا .

وبجانبه شخص متطامن ، ضئيل الظل ، قريب بعضه من
بعض ، تملأ منه عينيك في لحظة ، ينقل خطاه كما يتوالب القَطَا ،
ويقلب فيما حوله نظرة يقظى تسبر الغور وتخترق الحُجُب .
فإذا راعك مرآهما جنباً إلى جنب في الطريق ، فأقسِمْ غير
حاش أنك ترى « العقاد » و « المازني » . . . ترى ذينك الصاحبين
الذين ترافقهما في دنيا الأدب وعالم الثقافة منذ عهد بعيد .
ولقد ألفت الناس أن يتمثلوهما معاً ، حتى إنهم إذا رأوا
أحدهما وحده ، أعدوا أنفسهم لاستقبال صاحبه دون قصد ..
وذلك ما كان من أمرى معهما ، حين أزمعت أن أُجرى القلم

في الحديث عن واحد منهما ، فقد وثبت إلى ذهني على الفور
صورة الآخر لا تـرـيـمه ، ولم تكن لي مـنـجـاة عن جمعهما في مقال .
وليس ذلك عجبا في شأن « العقاد » و « المازني » ، فقد جلت

لنا صحائف التاريخ مشاهد من الأعلام مـشـنـى مـشـنـى . . .

وربما أثار الدهشة أن ثمة فوارق بين كل اثنين جمع بينهما
التاريخ ، وأن هذه الفوارق كانت خليقة أن تباعد بينهما كل
المباعدة . ولكن الحق أن تلك الفوارق هي علة الاتصال ، وباعثة
الاقتران ، إذ هي التي يتكامل بها الرفيقان ، فيؤلفان بهذا التكامل
صورة تامة تعبر عن جانب كبير من حياة العصر الذي يعيشان فيه .
و « العقاد » و « المازني » في تـزـامـلـهما يتقاربان جدّ التقارب ،
كما يتباعدان جدّ التباعد ، حتى لقد ينتهج أحدهما مسلكا عكس
ما ينتهج صاحبه ، بيد أنهما على الرغم من كل ذلك صـنـوـان أو
توأمان لا تـتـقـطـع بينهما الأسباب .

تلازما عصر الشباب ، حتى أدى بهما المطاف إلى أوج
الرجولة ، وبلغا عصر المشيب ، فلبث كلاهما على حاله ، لم يلحقه
تبديل ولا تحويل . . . « العقاد » في شبابه شيخ نشيط ، وفي
كـهـولـته شاب وقور . أما « المازني » فهو في شبابه وكهولته معا
ذلك اللـهـوب الشـغـوب ، صاحب النـكـات والمشاكسات ،

الساخر حتى من نفسه في غير مبالاة...

في حياتهما أَوْجُهُ شَبَّهَ عَجَائِبَ :

مدرّسان يزاولان التعليم حيناً من الدهر .

قارئان يَمْتَحِنَانِ من تَبَعٍ واحد ، سواء في الأدب العربي
أو في الأدب الإنجليزي .

شاعران يَخْطِئَانِ للشعر نهجاً طريفاً غير مألوف .

ناقدان يشوران على القديم ، ويدعوان إلى الجديد .

كاتبان يَشْرَعَانِ أوضاع ، المقالة ، العصرية في أدبنا الحديث .

صحفيان يناخِضَانِ بالقلم عن مذاهب السياسة ومبادئ الأحزاب .

ورأس المشابهة بينهما هونزعة التجديد ، فهما أبرزدعاة العصر

إلى بعث الروح الأدبي على نحو يسائر النهضة الأدبية في العالم

المتحضّر ، وإليهما يرجع كبير من الفضل في أداء رسالة الفكر

الغربي إلى الشرق في هذه الحقبة .

ولم تسكن دعوتهما إلى التجديد هدماً لما أثار الأدب وقديم

الثقافة ، بل كانت إمداداً للماضي بالحاضر ، ووصلاً للقديم بالجديد ،

وتزويداً للحياة الفكرية بدم قوى نقي . . . وذلك لأنهما كانا في

رحيب دراستهما ، وواسع تحصيلهما ، مثلاً طيباً للتمكن من أدب

العربية ، والتبحّر في ثقافة الشرق ، فقدّرا هذا الأدب حق

قدره ، وعرفا لتلك الثقافة حقها من التقويم .

لست أغلو في القول بأن المرض الذي ألمَّ « بالعقاد » ، في
مفتتح شبابه كان له الأثر الأعظم في تكوين حياته وإبراز طابعه ،
فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال
لميوله الأدبية كي تشبع نهمها إلى القراءة والدرس ، في ذلك
المعزِل . ومن ثم أقبل « العقاد » ، يعب من فنون البيان ومناحي
الثقافة ما ساغ له أن يعُجب .

وكان من أثر الاحتجاز في صومعة القراءة والدرس أن
تمكنت في خصائص « العقاد » ، ملكة التأمل في الحقائق ، والتعمق
في الأفكار ، فاكنت فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين ،
وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة .

وهذا المرض كان من أثره أيضا أن استقر في قلب « العقاد »
حب الحياة ، والتشبت بها ، والكفاح في سبيلها ، فإنه لما واتاه
الظفر في عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة ، ورغبة في التمتع بأطيافها ،
فسكرَّ مَ نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . وكان من
عُقْبَى ذلك الظفر أنه أورثه زهوا وعزة ، وثقة بالنفس ، ورهافة
شعور بالكرامة ، وأذكى بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة

والإصرار، فتجلّس في حياته وفي إنتاجه هذا اللون من القوة والصّراع وصلابة القناة .

وأنت كذلك ترى الصرامة والجد والتوقر طابعاً جلياً في أدب « العقاد » : شعره وترسله . الجملة عنده بديان مرصوص ، والكلمة في مقاله لها موقعها الذي لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطّاطرة ، فهو بحق إمام من أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وقد لزمتم « العقاد » عادة المطالعة ، حتى أصبحت له ديدنا لا يملك منه خلاصاً ، وعلى مرّ الأيام تأصيل ذلك فيه ، فصارت حياته حياة مكتبية محضّة ، وقد أبى على نفسه أن يشوبها بما يخرجها عن تلك الوحدة ، فعاش فَرْداً في صومعة القرائح والعقول !

تيسر « للعقاد » بذلك أن يعتصر زبدة الفكر من خير منابعه ، وأن يتزود بها ويتمثلها كما يتمثل الإنسان الغذاء ، فإذا هو دم يجري في الشرايين ليهب القوة والسلامة . فلا غرو أن تتّسم فصوله بسمات الدراسة والتمحيص وسعة الاطلاع .

وإذا كان لكل كاتب عيب يتوضح في آثاره ، فالعيب الجلي في كتب « العقاد » أنها لا تصلح أن تُزجى وقت القارىء قبيل النوم حين يتكىء على وساده ، حتى إن كتابه « سارة » — وهو قصة — يتعاصى على هذا الغرض ، لما فيه من تحليل عميق للنفس البشرية

يشير اليقظة ويشرّدُ عن العيون ترّنيق المنام ، فإن انخدع قارىء
بـ«كتب العقاد» ، فاتخذ أحدها للقراءة قبيل نومه لم يلبث أن يطيب
له الأرق ، وأن يستبدل بمتعة الرقاد متعة الاستغراق في عباب الفكر .
وأجمع القول في أدب «العقاد» أنه صورة صادقة لحياته
وخُلقه ، فهو فيما يكتب كأنما ينقل لنا مشاهد صحيحة من حياة
العقلية والنفسية في تلك الصومعة التي أولاها كل تقديس .



أما صنّوه «المازني» فقد طبعت نفسه على دُعابة ومرح ،
وقد تملّى حياة اجتماعية حقة ، فتزوج وأعقب ، واختلط
بالمجتمع ، وشارك الناس . . . فكان من ذلك كله مزاج طريف
تميّز به أدبه ، فبدأ قوى التماسح ، جميل التطرّف ، مشبوب النكتة .
وإنه ليبلغ في ذلك حدّ العريضة ، يتخذ ألواناً من المكاييد ، ويمارس
فنونا من السخرية ، فلا يتمالك قارئه أن يجاريه في تلك الخفة .
فيفترّ ثغره عن تضاحك موصول .

و«المازني» كصنّوه «العقاد» يصدق تعبيره عن شخصيته
وحياته كل الصدق ، فإنك تجد في أسلوبه سهولة المأخذ ، وفطرية
المظهر ، وشعبية الوصف ، فيخيّل إليك أنك لست ببالغ منه
بعيد غرض ، وليكنك إذ تتابع القراءة تحمّداً وبطلاوة العبارة

وسحر الحديث ، تتكشف لك دخائل من جوهر الحياة ، وحقائق
من قلب المجتمع ، بُسِطَتْ في هذا المعرض الأنيق الطريف ،
لا وعورة ولا تعقيد ولا تفلسف !

ولغة « المازني » ، تتفرّد بين لغات الكتاب بأنها تطوّع البيان
العربيّ الأصيل لمطالب التعبير العصريّ ، في منجى كأنه حديث
بجلس ، وفكاهة سامر ؛ وبأنها كذلك تطوّع اللهجة العامية الصميمة
للتعبير الفصيح بين طوايا المقال ، ففياً يجرى به قلبه تنساب
الكلمة الجزلة المختارة والكلمة العامية الطريفة ، في نسق بديع ،
تحسبه بادئ بدء هينا ميسوراً ، وهو عند الممارسة تقصّر دونه
همم الأقلام !

والقصة في أدب « المازني » ، عنصر له خطره ، ذلك لأنه يجلو
في « مقالة » ، تجارب الحياة ، وأوضاع المجتمع ، وشئون الناس ،
عارضاً ذلك ألواحاً تتراءى فيها الشخصيات والمشاهد والأحداث .
ومن ثمّ كان طبيعياً أن يكون « المازني » ، — إلى جانب براعته
في فن « المقالة » ، — أخاً جُودٍ موفّقة في القصص الفنيّ الخاص ،
وأن يكون قصصه مستودعاً يزخر بتقلبات الحياة ، وما يدور
في المجتمع من أسباب .

و « المازنى ، و « العقاد ، كلاهما بليغ الأثر فى توجيه الثقافة ،
وتجديد الأدب ، وإمداد الصحافة بمختلف الألوان ...

وهما الآن يلتقيان فى المجمع اللغوى — بجمع الخالدين —
تسجيلا لهذا التكامل بين شخصيتين لكل منهما منحنى وأسلوب ،
فلقد ضمهما المجمع « شاطراً ومشطوراً بينهما طازج ، من
الأدب الرفيع !

فكرى أباظ

محام ناب، في مئة الشبا، دائب الهممة، لا يعرف غير الطريق
بين بيته في « القاهرة » ومكتبه في « الزقازيق » . وإن بواكير
نشاطه وعمله لتبشر بأن سيكون له في عالم المحاماة شأن عظيم !
وما كان له وهو شاب متحمس يتوقد ذكاء والمجعية ألا يتابع
النهضة الوطنية في تقلباتها السياسية يوما بعد يوم .

وبينا هو وراء مكتبه يوما يتصفح إضامة قضية من قضاياها ،
إذا بنظراته تقع على إحدى الصحف السيارة ، فيقرأ فيها نبأ
ارتحال المعتمد البريطاني حينئذ عن « مصر » ..

فوجد نفسه وقتا يفسر مفسكرا في هذا النبا ، وما له من
ذبول ولواحق ، فأخذت أنامله تجرى دون وعي منه على ورقة من
أوراق مكتبه الخاصة بمذكرات الدفاع .

وانبرى يكتب في حمية نادرة ، وسرعان ما اتسقت له سطور
طوال ...

وأخير رفع رأسه عن المكتب ، فرأى أن يراعه قد دُبجت رسالة غريبة إلى ذلك المعتمد الراحل ، يشيِّعه فيها بكلمة طريفة تتميز بحساسة نفس ، ومهارة عرض ، وبلاغة حجة ، وسلاسة تعبير . . . وهي فوق ذلك كله فكِّهة الرُّوح ، حلوة الدعابة ، لينة الملمس !

فدهش الكاتب بما كتب ، وساورته الحيرة ، فراح يسائل نفسه : أبقليه حقا كتب هذه السطور ؟ وفيم فعل ؟ وما ذا ينتوي من وراء هذا الصنيع ؟

وانطلق يضحك ويُغرب في الضحك ، فما أسرع أن بدت له فتاة مكتبه الحسناء ، وعينها تلمع حيوية وفطنة . . . بيد أن الشاب استرسل في قهقهته ، وقال يسُدُّ فضول الفتاة المتسائلة :

إنى أضحك من عبث طفولة كان منى !
وتراجعت « السكرتيرة » ، إلى مستقرِّها ، وألقى المحامى الشاب بالورقة جانبا ، واستأنف درس قضاياه ، حتى فرغ منها ، فغادر المكتب كشأنه كل يوم ، لا يشغله شيء من أمر تلك الرسالة التي جرى بها قلبه منذ حين . . .

وأقبلت الفتاة على مكتب المحامى ، ترتب أضاميمه ومحتوياته ،

فلم تكذب تعثر على تلك الورقة حتى انكبت عليها تقرأها ، وألفت
بنفسها تنصايح ، وهي ترّجع الضحكات اللطاف !
فأسرع إليها خادم المكتب ، يتبين جايّة الأمر ، فعاجلته
بقولها :

إني أضحك من عبث طفولة حمقاء !
فارتدّ الخادم إلى الباب ، ووقفت الفتاة تردد النظر في المقال ،
فغنت لها فكرة ساورتها حيناً ، ثم ضربت جبهتها بكفّها ،
وهمهمت :

لم لا يكون ذلك ؟ من لم يخاطر لم يفعل شيئاً !
وتقصّضت أيام تابع فيها المحامى الشاب عمله ، كما ألوف عاداته ،
يستغرق فكره ما بين يديه من رُكّام القضايا والخصومات .
وفي صبح يوم جعل يعبر بعينه صحيفة « الأهرام » فراءه أن
الرسالة التي كتبها إلى المعتمد البريطاني بأسلوب ساخر تحتل من
الصحيفة أبرز مكان !

ففغر فاه من دهشة وتعجب ، وأنكر ما ترى عينه ، وجعل
يتشكك ويتثبت ، وانتهى به الأمر إلى يقين بأن الرسالة هي رسالته
التي دبّجها قبل أيام . . . وها هو ذا اسمه قد كشف للهلال عن سرّه
المستور !

وتلفست يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وقد أحسَّ بأن عيون الناس تقتحمه
وتمتصه ، وتهم بأن تناقشه في ذلك العبث الذي جرى به قلبه ...
فرمى بالصحيفة ، وانطلق إلى داره هَرَبًا ، وأزمع أن يحتبس فيها
أيامًا متمارضا ، ليحتجب عن أعين الناس ، حتى عن أعين الأطباء !
لأنه ليخشى أن تؤذى سمعه كلمات الهمز واللز ، أو أن يتعقبه
الشرطيون من رقباء الأمن وحماة النظام !

وبعد أن قضى فترة في محبسه ، وخف عن كاهله ذلك الكابوس ،
خرج إلى مكتبه حذرًا يترقب ، وقد كسا وجهه شحوب ...
وما برح يفكر ويتساءل :

أى شيطان أبلغ الأهرام ، رسالته ؟

ودار بأسئلته بين أعوان مكتبه ، يتقصى ويتعرف ، وهو ناثر
مُحَنَّق ، فلم يهتد إلى جواب يشفي الغليل .

وما إن جلس إلى المكتب يرغب في استئناف الدرس
والإعداد لإضمات القضايا ، حتى طالعته رزمة من رسائل
وبرقيات مضى يفسكها ، فإذا هي تحفيل بتحيات وتهاني على المقال
الذى أطرف به القراء ، ذلك الذى سماه : « عبث أطفال » !
وانصرم الوقت ، وهو يعرض هذه الرسائل ، تزريغ عيناه
بين زركامها ...

وأنهى إليه الخادم أن زوارا ينتظرون إذنه ، فنهض بهم ،
وقد قرّ في ذهنه أنهم من عملاء مكتبه ، وطلاب توكيله .
وما كاد يلقاهم محييا محفيا ، حتى استبان له أنهم « رسائل حية » ،
قد تمت تزجى إليه جديدا من تهاني وتحيات !
وترادفت عليه أيام ، وهو بين صدق ومكذب لهذه الحال
الطارئة التي غشيته .

وبعد حين ألقي نفسه وقد استيقظت بين جنبيه تلك الرغبة
الكمينة في أن يدبج سطورا من ذلك البيان الساخر ، على نمط
رسالته إلى معتمد الإنجليز .

ويوما جلس يكتب مقاله الثاني ، وما كاد يفرغ منه ، حتى أقبلت
عليه فتاة المكتب في تردد وإحجام ، وهي خافضة البصر ، تفرك
إحدى يديها بالأخرى ، فرفع إليها هامته قائلا :
ما بك ؟

فقالت متلعثمة :

ضاق بالسرّ صدرى . . . إني لمفضية به إليك ، وليسكن حكمك
ما تشاء .

فلمعت عيناه تطلعا وحيرة ، وسأل :
أى سرّ تعنين ؟

فقلت في لهجة استغفار وندم :

سرّ المقال ... أنا التي بعثت به إلى « الأهرام » ... ثق أن

تيتي كانت بيضاء !

فأخذ الشاب يعبث بالقلم بين أنامله ، وهو ينظر إليها بسام

الشعر ، ثم قال لها هادي الصوت :

لا عليك !

ومدّ إليها يده بالمقال الجديد ، قائلاً :

افعلي به ما فعلت بسابقه ... إني بك متيمّن مستبشر !

وسارت به الأيام ، تتوارد عليه الصحف ، حاملة له بين

صفحاتها فيض قريحته في هالة من الحفاوة والإعجاب .

فأحسّ الرضا عن نفسه ، وعن فناة مكتبه الحسناء ، ولم

يعد يرى فيما يثني به الناس عليه إسرافاً أو مغالاة .

واطمأن أخيراً إلى أن الأقدار قد اصطفت له لتسقي به في ذلك

الحشد من أدباء الصحافة وحملة الأقلام ...

وعلى مرّ الأيام تتخلّق في مكتب المحاماة مكتب آخر ،

جعل ينمو ويتسع ، حاملاً رسالة الصحفي وقلم الأديب !

وأصبح لذلك الشاب النابه حياتان ، تتقاسمان نشاطه ،

وتتنافسان في اجتذابه ، فنظر إليهما نظرة الزوج إلى ضرتين حسناوين ،
ليس له إلى التخلي عن إحداهما سبيل .

ولم يملك إلا أن يقول لهما مبتسما :

إني بين أيديكما ... فاصنعاني ماتريدان !

إن الله لا كرم من أن يدع « فسكري » للحمامة وحدها ...

بين ظهورنا عشرين من « فسكري » المحامي ، ولكن ليس

لنا من « فسكري » أديب الصحافة الفنان إلا رجل فرد !

أفليس من الظلم أن تأسره المحاماة ، فتحرمننا ذلك الأسلوب

الطلي الذي جلاه صاحبه وأبدع فيه كل الإبداع ؟

وربما كان من الدقة أن نشير إلى أن هذا الأسلوب ظهرت

لوامعه بادیء بدء في مقالات كانت تحمل اسم « الغزالي أباطة »

ولعل معالي الأستاذ « إبراهيم دسوقي أباطة باشا » أدرى الناس

بصاحب ذلك الإمضاء !

فهذا الأسلوب وليد البيت الأباطي ، تعهده « فسكري »

وخلف له ، وتفنن فيه حتى بلغ هذا المبلغ من الروعة والإمتاع .

مزية هذا الأسلوب هي المرونة والطواعية للتعبير عن دقائق

الحياة الاجتماعية والعراك السياسي في شتى النواحي والأوضاع .

تعبير كأنه حديث عذب ، يصغى إليه السامع ، فكأنما يترشف

من شراب منعش ، لا يفضى إلى سُكْر ، بل يُشِيع في النفس
لطائف النشوة والمراح . . .

تعبير الطبيب البارع حين يؤلف بين العقاقير الناجعة والشراب
الحلو ، فيخرج منها مزاجاً يجمع بين الفائدة وطيب المذاق .
تعبير تتجلى فيه أشتات من المزايا :

عفة في اللفظ ، فلا موضع لكلمة نابية ، وسخرية في النقد لا يترك
مُبْضَعُهَا جُرْحاً يَدْعَى ، وجرأة في الحق تبعثها الصراحة
والغيرة ويقظة الضمير .

إن « فكري » ليغضب أحيانا غضبة النَمِير ، وقد يرفع
كفه ليصفع بها الصفة القاضية ، ولكن سرعان ما تحول الصفة
في يده مُزْحَةً ودعابة تؤلم ولكنها لا تثير الحفيظة ولا تهيج الغيظ .
لسنا نزيد في القول ، إذ نصف أسلوب « فكري » بأنه
« الأسلوب الدبلوماسي » . ولأنه يمثل في الصحافة ذلك السفير اللبق
الذي يحقق أغراض دولته ويرعى مصالحها ، دون أن ينتضى سيفاً
أو يصوب مدفعاً . . . وإنما يبلغ أهدافه بأفانين من مهارة في
الحديث ، ولباقة في تصريف الكلام !

ولا ريب أن أسلوب « فكري » قد أثار في أذهان جمهرة من
كتاب الصحافة التطلع إلى أساليب جديدة من التعبير الشائق

الخلاب ، فإنه فضل السبق والإثارة فيما يتجلى في الأسلوب الصحفي على وجه عام من طراوة ولباقة وتجديد في الوصف والعرض والتعليق ...

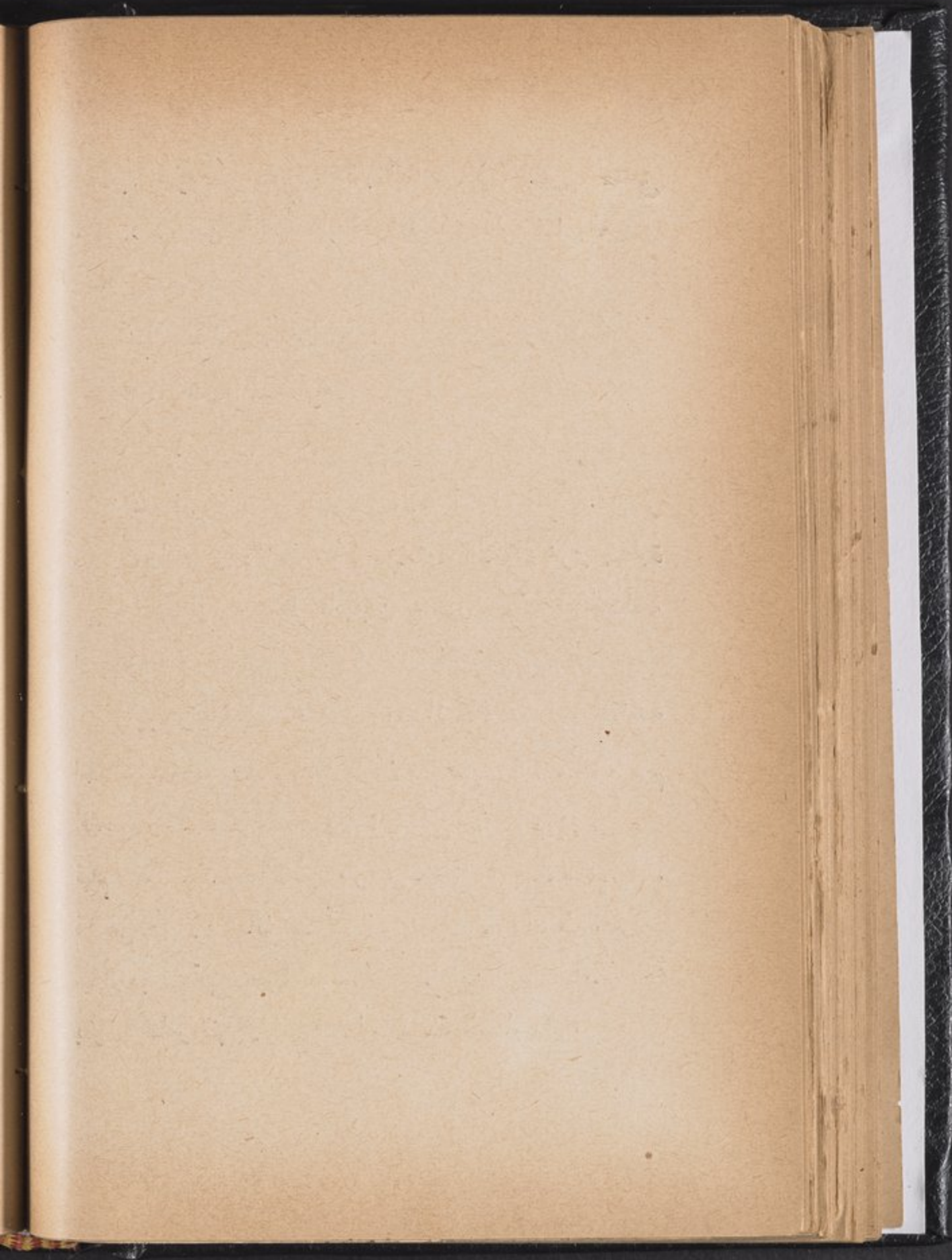
سـبـلـم « فـكـرى » من آفتين :

آفة المناصب الحكومية .

وآفة الخصومات الحزبية .

وقد وفّرت له سلامته من الآفة الأولى حرية في النظر والوزن والتقدير ، ووفّرت له سلامته من الآفة الأخرى جسارة على مواجهة الزعماء جميعاً بما يؤمن به ، دون تقيّد أو مصانعة أو خشية ملام .

واليوم وقد تسنّم « فـكـرى » تلك المكانة بين حاشية صاحبة الجلالة الصحافة ، نراه لم يحدد ما كان من صنيع فتاة مسكته يوم أفلحت في التجسس عليه ، وجرّوت على أن تقوم بمهمتها خير قيام ، إذ استطاعت أن تمهد طريقه الصحفي في خطواته الأولى .
فها هي ذى الآن بجانبه تشاركه فيما يعمل ... ولفرط اعتزازه بها ألزمها أن تخفى وجهها الصبيح تحت قناع من أقنعة التنكر ، فلا يعرف الناس منها إلا اسم : « الجاسوسة الحسناء » !



أنطون الجميل

حينما أخذتُ القلمُ لا كتبُ كلماتٍ أصوّرُ بها شخصية أديب
الصحافة الأَكْبَرُ ، أنطون الجميل ، طالعني على الفور رَسمان لرجلين
من أعلام الأدب العالميّ ، هما : « الفريد دى موسيه » الفرنسي ؛
و « أوسكار وايلد » الإنجليزي .
فلبثتُ هنيئةً أفكر .

أيةَ مَشَابَهَةٍ بين أديبنا العربيّ وهذين الأديبين الأوربيين ؟
يدرك المرءُ أحياناً ببصيرته أول وهلة حقائق من الحياة لم يكن
ليدركها بآنعام النظر ، فإذا راح يمتحن ذلك الإدراك الفطريّ
البديهيّ ، ويعرضه على موازين العقل وأقيسة المنطق ، تجلّ له في
الغالب صدق البصيرة وقدرتها على اكتناه سرائر الأشياء !

أول ما يروعك من صورة الأديبين الأوربيين ظاهرَتان ، هما :
الشاعرية ، والأناقة . . . تتجلّيان فيما يبدو عليهما من سمات
وملامح ، وفيما يُؤثران من شارة وزيّ .

فإذا ما عدلتَ ببصرك إلى صورة « أنطون الجميل »، توضحت
لك هاتان الظاهرتان غاية التوضيح .

وإنك إذ تساير مراحل حياته ، منذ عرفته « مصر » قبل
عشرات من السنين إلى هذا اليوم ، تجد هاتين الخلتين تطبعان حياته
بطابعهما الأصيل ، وكلما تقدمت به مراحل الحياة ألفت جذورهما
تتأثّل ، وفروعهما تتسامق وتترعرع !

ولعلنا لو عرفنا « أنطون الجميل » ، في معلّمة الأدب العربي
بأنه : « أناقة وشاعرية » ، لكننا بذلك قد أجملنا له تعريفا يجمع
بين الصدق والإبانة .

للرجل خصائص أخرى لها خطرها ، ولكن هاتين الخلتين
أظهر ما فيه ، بل إنه يكاد يكون أكثر الناس اختصاصا بهما .
شاعرية « أنطون الجميل » ، لا تتمثل في صوغ القصيد ، فما
أحسبه قد عني نفسه ببناء بيت ، ولكن له مع ذلك قصيدة فريدة
تَرَفُّ فيها الشاعرية أجمل رفيف ، تلك القصيدة هي حياته ! .

كانت براعة الاستهلال في هذه القصيدة - يوم بزغ الرجل في
« مصر » - هي ولوعه بالشعراء ، يتصل بهم ، ويقبل على مجالسهم ،
ويعتد بينهم وأواصر الألفة والود .

في هذا العهد كان لأستاذ الشعر « إسماعيل صبرى » ندوة
تمثّل مجمع الأدباء خير تمثيل ، فما أسرع أن ظفرت هذه الندوة
« بأنطون الجميل » ، وأصبح كوكباً لامعاً في أفقها الكريم ...
بين أرجاء هذه الندوة تنفّست شاعرية الرجل في نشوة
وارتياح ، واسكنها سمت إلى أن تعبر عن طموحها ، فتجلى ذلك
التعبير في إخراجه مجلة « الزهور » ، وحسبك من اسمها عنواناً
على تلك الشاعرية التي يفيض بها وجدانه الرّفيف ، فالزهرة للشاعر
مهوى نفسه ومجلى أنسه ، ومَرَادُ إلهامه !

سنوات أربع كانت هي عمر مجلة « الزهور » ، وكذلك الزهر
قصير عمره ! ... ويومئذ لم تكن الصحف والمجلات إلا أضاميم
أوراق سودّت بأخلاق من منظوم ومنثور ، فتنضّرت مجلة
« الزهور » تسترعى بطرافتها أنظار القارئ ...

كانت وثبة جديدة في صحافة الأدب : أناقة في الطبع ، جدّة في
الإخراج والتنسيق ، انتقاء للرسوم والصور ، حتى إن هجوم الحروف
وأوضاعها لم يفتها من العناية نصيب ... فإذا المقال يجتذبك
بخلاصة منظره ، قبل أن يمتعك بجودة مخبره ، وإذا أنت مفتون بهذا
التفنن في تجلّية الروائع العربية عصرية الروح على نمط رفيع ...
تلاقى في ميدان « الزهور » أقلام النابغين في الأدب ، فأضحت

المجلة جامعة لأدباء العروبة تصل بينهم على تباعد المواطن
والأصقاع .

على أن المجلة تميزت بطابع الشعر ، فتألفت فيها عيون القاصائد ،
وتناثرت روائع الدراسات للشعراء ...

وإن ما عُنِيَ به صاحب المجلة من تجوّد في الاختيار ، ودقة
في التمييز ، قد يَسْرُ له — فيما بعد — أن يقتطف من شعر « الزهور »
طاقة عطّرة سماها « مختارات الزهور » ، هي في الحق أول مجموعة
شاملة لأنماط الشعر العربيّ في بواكير نهوضه الحديث ، حاوية
لضرب من التعريف بالشعراء في أسلوب وصفيّ جديد .

قرأنا في هذه المجموعة « لإسماعيل صبرى ، و « شوقي »
و « حافظ ، و « محرم ، و « من إليهم . وإلى جانبهم قرأنا « لخليل مطران »
و « بشارة الخورى ، و « عمون ، و « الملائكة ، وكثير غيرهم ،
فاجتلينا صفحات مشرقة ، وألواحاً فنية ، هي نخبة تفصح عن
ذوق مصفّي وتمييز دقيق .

لا مريّة أن « لأنطون الجميل » ، موهبة أصيلة في تذوّق الجمال
وصدق الحكم على الجيد من آثار الفن ...

وإنه ليشبه في هذه الموهبة أولئك الخبراء الفنيين الذين أوتوا
مواهب عجيبة من دقة الحس ورهافة الذوق وإصابة الرأي ،

لا يعيدهم تذوق الأشياء ، والحكم على مقدار جودتها . . . فنراهم في
الشراب وفي التبغ مثلاً أئمة حكماً ، تلجأ إليهم المصانع مسترشدة
بما يصدر من أحكام فيما يتذوقون من خَلِيطٍ لفافة أو
مزاج شراب !

ليس « أنطون الجميل » ، إلا واحداً من هؤلاء الذواقين الحكماء
الذين سحخت عليهم الطبيعة بموهبة التخيير الصائب ،
والتقدير الصحيح ..

الشاعرية والأناقة تلازمان « أنطون الجميل » ، في ملبسه ، وفي
حديثه ، وفيما يجري به قلبه . . .

مقاله في أى موضوع يطرقه قصيدة أنيقة خلاصة الرؤى ،
يفتق ألفاظها انتقاء البستاني للناضر من الزهر ، وينسج جملها
تلسيق فنان فياض العاطفة بحب الجمال .

ومهما يكن من دقة الموضوع الذى يتناوله ، ومبلغ جدّه
وخطره ، فإنك تحسّ شاعرية المعانى والأفكار تقطُر رقة أو
تتلظى حمية ، خالصة أبداً من وُعورة أو جفاء ، وإنك تراه
يصب آراءه فى فِقَرٍ أدنى إلى أبيات القصيد .

فإن مددت عينك إلى مؤلفات « أنطون الجميل » ، وجدت الرجل
كما هو ، لم يتعدّ طبعه الأصيل ، دراسات للشعراء ؛ من مثل

« شوقي » و « إسماعيل صبرى » و « ولى الدين يكن » ، هو فيها
شاعر أنيق يشدو ويتغنى ويوقظ فطنتك لتتعرف مواطن الجمال .

ومرة أراد أن يقتحم ميدان الحياة العملية فى تأليفه ، بعيداً
عن آفاق الخيال ، فانتخب مؤلفاً أجنبياً نقله إلى العربية ، فإذا
الشاعرية الغالبة فى طبع « أنطون الجميل » تأسره فى هذا الاختيار ،
وإذا الكتاب هو « الفتاة والبيت » . . .

صفحات تثير فى النفس حبّ الجمال ، وتطبعها على الأناقة ،
وتربى فيها ملكة الذوق السليم . . . فكأنه بهذا الكتاب يعمل على
نشر رسالة الشاعر الأنيق !

فى هذا الكتاب روائع من جديد الألفاظ ، ورشيق الفِقر،
فأنت إذ تمضى فى قراءته كأنك تسير جدولاً رقيقاً توشيه
الرياحين . . .

من الظلم أن نقصر الحديث عن « أنطون الجميل » على شاعريته
الأنيقة ، فثمة شيمسة لها أثرها البارز فى حياته ، تلك هى المرونة
والطواعية . . . ولكن أليست هذه الشيمة إحدى « منتجات »
الشاعرية والأناقة ؟

تمتاز حياة الرجل بتلك المرونة التى كانت معواناً له على الفوز
والتبريز . . . ولعل مرونته العجيبة هى التى أعانتها على أن يظل رهين

الوظيفة الحكومية أكثر من خمسة عشر عاماً دون أن تصبّه في
قالها المعروف . . . ويخيل إلى أن هذه الوظيفة كانت كلها همت
أن ترفع يدها بنخاتها تريد أن تهوى إليه لتطبعه لم يلبث أن
ينحرف عنها ويرى، تؤازره تلك المرونة التي بفضلها يتسنى له أن
يسكون على وفق ما يريد .

خرج « أنطون الجميل » من الوظيفة لم يلحقه منها تبعات ،
خرج محتفظاً بشخصيته ، فإذا هو كما هو ذلك الشاعر الأنيق اللبق ،
ذو النفس الحرة ، والرأى الصريح ، والأفق الرحيب .

ولما تسنم مكانه من « الأهرام » تجلت فيه شيمة المرونة في
أسمى صورها ، إذ صادفت في تلك البيئة مجالها الزاخر .

خمس عشرة عاماً أخرى ، مرت به في هذا العمل الصحفي ،
وهو يقف دائماً موقف المحايد البصير ، يصرف المآزق في لباقة
وحسنة ، ويجنب حياده الدقيق طوارئ الأحداث
وشوائب الأهواء .

ليس حياد الرجل فراراً من جهاد في سبيل الخدمة العامة ،
يُغريه به فقدان المبالاة ، وإنما حياده ترفع حين يجب الترفع
عن الخوض في معارك حزبية ليست وثيقة الأعراق بالصالح العام ،

وأحياناً يتمثل هذا الحياد في إفساحه المجال للآراء المتنازعة في حرية وطلاقة ، رغبة في التنوير والتبصير .

إذا التطمت خصومات الزعماء والساسة ، وتدست نزعات النفوس مُقَنَّعة بلبوس الصالح العام ، ألفت « أنطون الجميل » يُطرق إطرقةً الكريم ، ويغضى إغضاءً من يغنى ستره هذه المشاحنات وتقريب شقّة الخلاف .

فإن جدد الجدد ، وكان الصالح العام سيّد الموقف ، رأيت الليث ينبعث من عرينه ، وسميغته يطلق زئيره ، جاهراً بالرأى في غيرة وإخلاص ، دون تجريح أو تسفيه أو تهوّر ...

واحتواه مجلس الشيوخ ، فكان موقفه فيه مثيل موقفه في « الأهرام » : أذُن تتصامم حين تتهاثر منافسات الأحزاب والأشخاص ، فإن أخذت عليه المسالك ، وضاق بالصمت ، وألغى نفسه في المعمة دون اختيار ، أنجده من حضور الذهن وسرعة الخاطر مدد ، فتراه ينسلّ من المأزق في تحيّل ولباقة ، وله في هذا الباب طرائف تُؤثّر وتُروى .

ما كان « أنطون الجميل » أن يتملك ناصية الحياد النبيل ، وأن يصبر عليه ، لو لم تجتمع له خلال من رحابة الصدر ، وكرم النفس ، والزهد في صغائر الشهوات التي تحفز صاحبها إلى الاستطالة والحقد والجحود ...

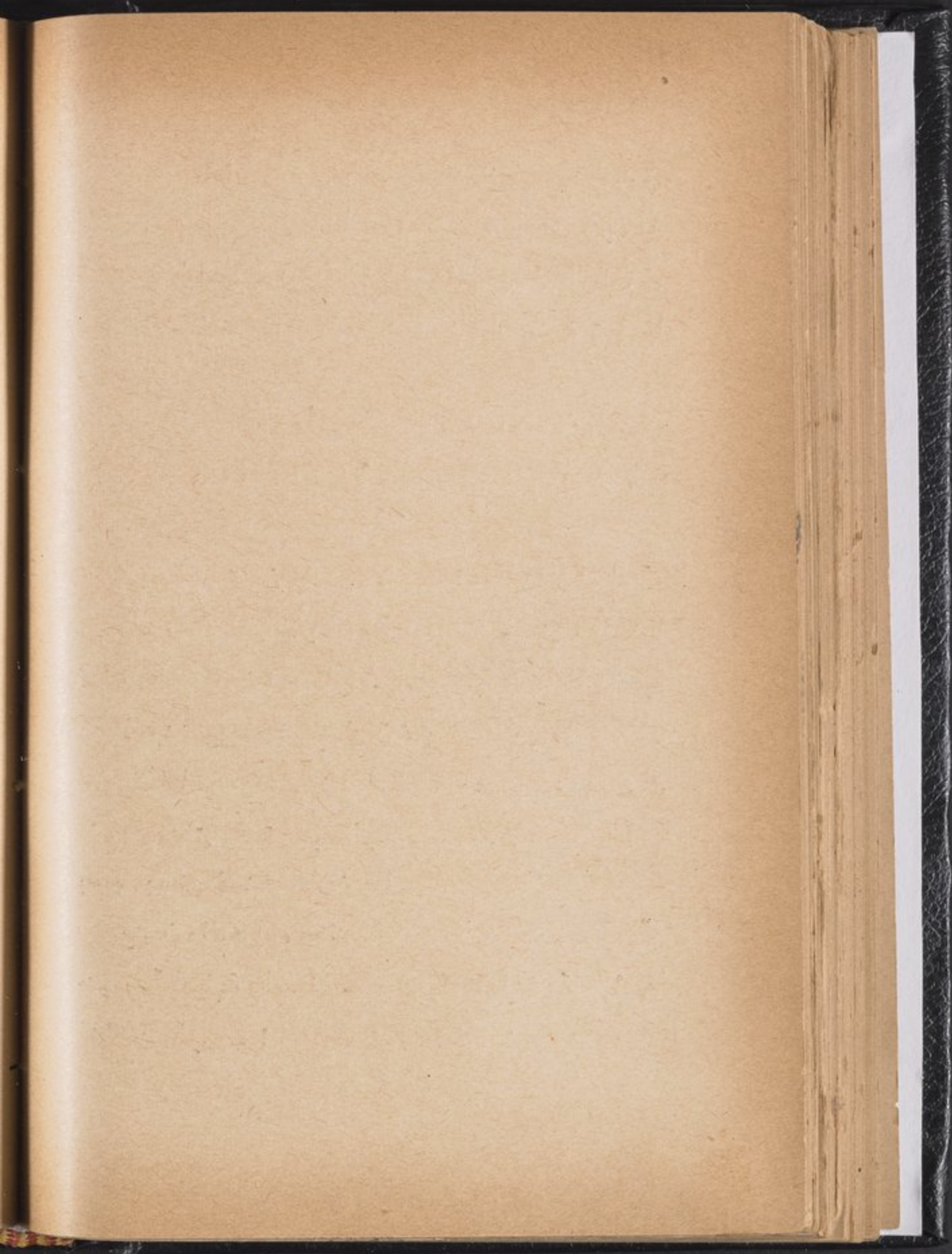
وليس بدعاً أن يكون « أنطون الجميل » هو « الصديق
المشترك الأعظم » لسائر الساسة والقادة وأهل الرأي ، فإن فيه
أكرم خلة يلتبسها الصديق في الصديق ، تلك هي خلة الوفاء ...
وطالما آتسنا مظاهر هذه الخلة في مناسبات كثيرة يتجلى بها
« الأهرام » .

وإن وفاء « أنطون الجميل » ليس بظله على الأحداث الماضية ،
والذكريات العزيزة ، فهي تهز قلبه ، وتجذب من أريحيته تلبية
واستجابة ...

شخصية « أنطون الجميل » لا غنى عنها في الميدان السياسي ،
وموقف « الأهرام » لا بد منه في الميدان الصحفي ، ولسكننا
لا نلتظر أن تكون شخصياتنا السياسية قاطبة على غرار شخصية
ذلك المحاميد النبيل ، وليس بجائز أن تصير صحفنا كلها على نحو تلك
الصحيفة الناجية من شواظ المنافسات والخصومات ، فهذا وذلك
لا يوائم منطق الحياة وطبيعة البشر ... ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لفست الأرض ، ١ .

بيد أن « الأهرام » وقائدها الأمين ، كلاهما عنصر جوهري
ضروري للسياسة وللصحافة ، حتى لا يكون الميدان كله نهبة
للتطاحن والعراك ١ ١

١١



الشيخ أبو العيون

سمعتُ بالشيخ ، أبي العيون ، قبل أن أقرأ له ، وقرأت له قبل
أن أراه ، فتمثل لي شرطياً أقْتَسِمَ عَبُوساً مَسْكاً هِرَاوَةً ضَخْمَةً ،
يطارد بها الرذائل ويظهر منها الأرض ، في قساوة وجراءة
واقْتِحَام ... ولذلك كنت أستشعر له رهبة يخالطها توقير وإجلال .
وظَلِمْتُ أخشى أن تهَيَّءَ لي المصادفات فرصة لقائه أو
التحدث إليه ، حتى لا أضيق بما يضيق به جاليس المتزمتين الذين
لا همَّ لهم إلا الإِنْحَاءُ على الجلساء بالوعظ والإرشاد !
ولكن حدث بعد ذلك أن وصلت بيني وبين الرجل أسباب
التعارُف ، فراغني منه أول وهلة : وداعة في الشئائل ، ودمانة في الخلق
وموفور من الكياسة والمرونة .

وتتابع لقائي إياه ، فتطير من مخيلتي شبح ذلك الشرطي
الآقْتَسِمِ الْعَبُوسِ ذِي الْهِرَاوَةِ الضَخْمَةِ ، وحل محله ذلك الشيخ

«الجنّتلان» الذي أُنْعِمَ ظرفا ورقة حاشية ، فعجبت لتلك
المفارقة البالغة بين شخصية «أبي العيون» جليسا ومتحدثا ، وبين
دعوته كاتبا وصوته في المكافحة والصّيال .

وكدت أنسكّر عيني وسائر حواسي ، واستهواني الأمر ،
فعمدت إلى استجلاء خوافيه ، فأنكشفت لي السرّ المكنون ،
ووضح لي أن إهاب الشيخ «أبي العيون» تنطوى فيه شخصيتان
تكاد كل منهما تستقل بنفسها تمام الاستقلال .

عرفت أن الشرطيّ الأقمّ العبوس ذا الهراوة الضخمة يؤدي
عمله صادرا عن عقيدة وطيدة وعاطفة متضرّمة ، فلا تصنع ثمة
ولا ديهان !

ولكنني عرفت كذلك أن «الجنّتلان» الأنيس إنما يستمدّ
أنسه وعدوّه شيمته من طوية نقية وشعور رَهِيف ، وذوق
حَضْرِيّ رفيع .

وإن هاتين الشخصيتين لتسيران معا جنباً إلى جنب ، وربما
طغت شخصية «الجنّتلان» على شخصية الشرطيّ ، فأنت تقرأ
مقالات الشيخ العنيفة ، فتستشف تحت سطورها لطفاً وحنانا في
التعبير والتصوير ، لا تقتحم عينك كلمة عوراء ، أو جملة حُوشِيَّة ،
أو تعبيراً تترامى فيه آثار الظُفْرِ والنباب !

نجم الشيخ « أبو العيون » ، في بيت دين وتقوى ، يسوده التحفظ
والورع والأوضاع المأثورة في العادات والأخلاق ... بيت ارتدى
بعض كبرائه جلاباب الولاية ، وشاعت عنهم ضروب من
السكرامات ، فاعتقدتهم الناس ، وأقسموا بهم غير حائثين .
ومن ثم استقرت في نفس الشيخ منذ نعومة أظفاره هذه النزعة
الغلبة في الذب عن محارم الدين وحياطة شعائره .
واستقبل « الأزهر » ، ذلك الفتي المتدين ، فاغتذت تلك النزعة
بغذاء آتاهها النمو والزكاء .

وتنقل بعد ذلك في وظائف التعليم ، تارة في المدارس ، وتارة
في « الأزهر » ، حتى أدّى به المصطاف إلى « الإسكندرية » ، شيخا
العلمائها ... ثم استردّه « الأزهر » ثانية ليتولى فيه مناصبا من
عليها مناصبه .

وما برح في كل تلك المراحل يتنفس في أجواء دينية محافظة ،
تُظللها أسباب التزم بالورع والتقوى .

ولكن — وفي « لكن » هذه سر الأسرار — حينما كان
شيخنا رطب العود ، يرتشف من علوم « الأزهر » العربية ،
أحسن ميلا فطريا إلى الأدب وما إليه من منظوم ومنثور ،
وطرائف وأسمار ، وألقى نفسه يمنح وقته الأطول للمطالعات الأدبية

في دواوين الشعر وأسفار البيان ، فَصَفَا ذوقه الفني ، وشاعت
الركة في شمائله ، وتجلت له مواهب حافلة ، فإذا قلّمه يجرى على
الصحائف بفاخر الكلام ، ولقيت مقالاته إقبالا من القراء ،
وتحيّة من النقاد ، لما آنسوه فيها من سلاسة أسلوب ، وحلاوة
لفظ ، ونصاعة فكر .

فانتضى قلّمه يواصل التدبير ، وأصبح في عداد الموسومين
بالأدب من الكتاب ، أولئك الذين يحسنون الإبانة ، كما يحسنون
تذوق البيان . . .

وشبّ شبابه مقبلا على مجالس الأدباء وأندية الشعراء ، إذا
سمع بأديب أو شاعر هُرع إليه ، يتصل به ، ويسأله الود . . .
وانفسح له مجال المطالعة والكتابة ، فأحس كما يحس كل أديب
صادق الموهبة ، بنزعة إلى الحرية والتنفس في آفاق رحاب . . .
وهنا تجلت شخصيته الثانية ، وتم له تكوينها .

ومن ثم نشب ذلك الصراع بين نزعتين : نزعة التحفظ ،
ونزعة التحرر ، أو — على الأصح — قام العراك بين عاطفتين :
عاطفة الشيخ المتدين ، وعاطفة الأديب الفنان !

وكانت الوثبة الوطنية . . . فاتخذت من « الأزهر » مرتعها
الخصيب ، وما كان للأزهرى البارّ سليل الشيوخ البررة أن يحجم

عن الضرب في المي^و أن ، فألفيناه سباقاً إلى الاقتحام ، وما لبث
أن كان زعيماً بين أقطاب الحركة ، ينفخ في روحها بقلبه وصوته
وسعيه ، مُرْخِصاً في سبيلها كل مجهود ، واقفاً بجانب الطليعة من
القادة ، أمثال الشيخين « الزنكلوني » و « القاياتي » والقمص
« سرجيوس » !

وفي هذا الجهاد الوطني انفسح أمام الشيخ « أبي العيون »
بجال العمل ، نخرج من تلك الدائرة الضيقة : دائرة التعليم والتدريس
إلى دائرة فسيحة صاحبة قوة الصلات بالمجتمع المصري وطوائف
الناس فيه .

وما أسرع أن ظهرت للشيخ مواهب من المرونة والكياسة ،
وحسن تصريف الأمور ، والتوفيق بين وجهات النظر في مواقف
محرّجة ، وما زق تزلُّ فيها الأقدام . . .

خاض الشيخ هذه المعارك في ميدان الجهاد الوطني ، فكانت
خير متنفس له عما يعتلج بين جنبيه من أحاسيس ومشاعر
مكظومة مكبوتة تضيق بها بيئة التحفظ ، ولا تنسع لها حلقة
الدرس . . .

وأبلى في عهد الثورة أحسن البلاء ، ولسكن ما هي إلا أعوام ،
حتى ألقى تلك الثورة التي كانت شعلة واحدة قد تفرقت شيعاً

وأحزابا، فأحس مرارة الخيبة، ولكنه استمسك بموقفه، وصان
مبدأه عن التنقل بين هؤلاء وهؤلاء.

ولم يكن بد من أن يبحث الشيخ عن مُتَمَنِّفٍ لتلك المشاعر
المحتدمة التي تأتي إلا الانبعاث.

ويومًا قرأ في إحدى الصحف نبأ قسيس في بلد أجنبي يرفع
صوته مستنكرًا قيام البغاء.

قسيس يناهض البغاء في بلد أوربي؟!!

وتلفت الشيخ حوله، وهو في بلد إسلامي صميم، يتسامل:

أئمة شيخ يماثل هذا القسيس في دعوته الصالحة؟

وبلغ منه العجب كل مبلغ... كيف فات أهل الرأي

ورجال الدين وولاة الأمور أن «مصر» المسلبة شعبا وحكومة

ترخص رسميا بمزاولة البغاء، على حين أن الإسلام يستنكر

الزنا، ويحذره أقسى الحُدود؟

واهتز في مجلسه اهتزازة عنيفة، وأحس من قرارة نفسه

صوتًا يعلو مهيبًا به أن يهبط، مجاهدًا في سبيل الفضيلة.

أليس هو سليل الأولياء الصالحاء ممن يقسم الناس بهم في غير

حنث؟

أوليس هو لذلك أحق من غيره برفع راية الحرب على البغاء؟

إنه يتقدم حمية ويقظة ، وإنه لقادر على أن يشير بقلمه رواقدهم ، ويتبعث عيرة الضمائر .

وتمثل له في هذه اللحظة ما اضطلع به من جهد في الثورة الوطنية ، إذ كان فيها لسان صدق ، وداعية حق .

كيف لا يستأنف جهاده في هذا الميدان الديني ؟

إن الخلق القويم والفضيلة الكاملة دعام الأمم ، فلا قيامة لأمة تسرى في كيائها الخلق جرائم الرذيلة .

وجلس يكتب مقاله في السبغاء ، وأخذ يفكر في عناصر موضوعه ، وراعه أنه لا يعلم من تفاصيله ما فيه غناء . . . ولكنه ألقى القلم يمضى وثابا على القرطاس ، وإذا هو مهتاج النفس ، جياش العاطفة ، لا تعنيه المعاني والأفكار .

ولما أتم المقال ، جلس يقرأه لنفسه ، فعجب مما سطر . . إنه حملة شعواء على البغاء ، وإنه ليعالج الموضوع بوحى من العاطفة والعقيدة أكثر مما يعالجه بأقيدة العقل والمنطق . .

لسم يكن في هذا المقال إلا شاعرا مغرقا في الشاعرية !

وأرسل مقاله إلى « الأهرام » ، ووقف يحاور نفسه مبتسما :

أتلقى هذه الفورة العاطفية أذنا صاغية ؟ أم تذهب صيحة

في واد ؟

واطمأنت نفسه أخيرا بأنه مهما يكن من أمر المقالة وما يكون
من أثرها ، فقد أدّى بها واجبا محتوما ، ووصفك عن ضميره عبثا
ثقيلا !

وتنفس أنفاس هدوء وارتياح .

كانت « مصر » يومئذ حديثة عهد بإعلان الاستقلال ، وقيام
الدستور وبدء الحياة النيابية . . . كانت كالسجين الذي أفلت من
محبسه ، وحطم أغلاله ، وانطلق في أجواء حرية وتطلع ، تتضرم
بين جنبتيه رغبات وآمال ، وتمثل لعينيه أخيلة المستقبل الجديد ،
وما يكون فيه من إنشاء وتعمير . . .

كانت « مصر » آنئذ يتأجج فيها النشاط ، ويستبدّ بها النهم
إلى الإصلاح والتجديد ! فلم يكن يفوتها أية دعوة أو نداء فيه
صالح الوطن ونفع الأمة ، ولا سيما ما كان من هذه الدعوات
والهتافات يهدف إلى تركيز القومية ، وإبراز الشخصية واضحة
مستقلة خالصة من الشوائب . . .

فما إن سرت في الجمهور مقالة الشيخ ، حتى أذن لها ، وتأثر بها ،
وتحمّس لفكرتها . . . إنها صحيحة ^{في} يشنّها الشيخ على الانحلال
الخلقي الذي هو بلا ريب من مخلفات عهد الخضوع والخنوع . . .
فكيف ترضى الأمة الحرة لنفسها أن يلحق بأذيالها هذا الوضّر ؟

انتهت الرسائل على «الأهرام» تأييداً للفكرة ، أو بحشاً فيها ، وتعليقاً عليها . . . وشعرت «الأهرام» بأن قراءها يتقاضونها المزيد في هذا الموضوع ، ففسحت صدرها للكتاب ، ورغبت إلى الشيخ في أن يتابع صيحته ، وأن يكون على مَرَقَبَةٍ من معقباتها بين الباحثين والنقاد .

وتذوق الشيخ لذة الظفر بأن صيحته لم تذهب بدداً ، وشمّر الأمر ، وأعدّ العدة لمواصلة البحث والدرس على أساس من حقائق العلم وظواهر الاجتماع . . .

فانبرى يتعمق في الموضوع ، ويتعرف جوانبه ، ويسأل أهل الذكر ، وَيَسْتَكْنِسُهُ أثر البغاء في الصحة والاقتصاد وشتى النواحي النفسية والخلقية ، وكان كلما استوفى بحثه في إحدى النِّقَاطِ دَبَّحَ مقالته فيه ، وانتقل إلى البحث في نقطة أخرى ، والجمهور الضامى ينهل من ذلك المَعِين ، لا يَرَوِي له غليل !

ما زال الشيخ يواصل حملاته ، حتى اجتذب إلى موضوعه آراء الخاصة وأهواء الناس ، فانتقل الموضوع من طور إلى طور ، وأصبح التفكير في تنفيذه أقرب من المناقشة فيه ، وأخذ الشيخ على عاتقه مهمة الاتجاه العملي إلى إلغاء البغاء ، فمضى يطرُق أبواب الحكام ، مشيراً غَضَبَتَهُم للفضيلة ، مستحثاً إياهم على أن يقضوا على مذابح الأعراض !

واطمأن الشيخ أخيراً بأن إلغاء البغاء أضحى مشروعاً يأخذ
دوره الحكومى فى التحقيق شيئاً بعد شيء... فأحس بأن واجبه
نحو هذا الموضوع قد قارب التمام، فعليه أن يتجه وجهة أخرى
ليستأنف الجهاد فى ميدان جديد، ذوّداً عن حوض الفضيلة،
وإعلاء لكلمة الدين.

إن هذه النفس الثائرة لم تحب جذورها، فهى لا تفتأ تتساءل:

هل من سبيل إلى مزيد من وقود؟

ولّى الشيخ منصبه فى «الإسكندرية» كبيراً لعلمائها، ولعل
قدميه قد مضتا به إلى الشاطئ بعد أن أدى فريضة الصبح يستروح
نسيم البُسكُور، أو لعله خرج فى أحد الأصائل يتنزّه بعد يوم
عامر بألوان الشواغل والأعمال، فما راعه إلا أن يرى ما يشير
ثائرة الحليم، ويهيج غيرة الشرقى الصميم!

لقد رأى النساء والرجال أخلاطاً أشباه عُرّة، لم يستروا
من أجسادهم إلا أقلها، فكأنما أخرجوا إلى الأرض، كآدم
وحواء، إذ خرجا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة!

تذمّر الشيخ بادية بدم وتعوّذ، وانبرى يناجى نفسه:

أين الحياء، وأين الصوت، وأين العفة!

واحتشدت بين جنبيه جموع التقاليد تهيب به أن ينهى عن
هذا المنكر الذى لا صبر عليه لغيره !

ولكن أنسام البحر المنعشة نطرت إليه تحاول أن تسكن
من روعه ، وتهدىء من ثأرته ... تخطرت إليه تحمل بين تضاعيفها
أهازيج المرح وهتافات الشباب ويقظة الحياة .. فجعل يجيل
الطرف هنا وهناك ، فوقعت عينه فى رحاب الشاطئ على ذلك
اللوح الفنى المشرق من الوسامة والفتون !

تلك هى الدنيا ضاحكة من حوله ... وهذه هى الطبيعة
متبرجة مرحة كأنما تشترك الناس فيما هم فيه من متعة
وائتناس ... وذلك هو الجمال يفيض على الكون كله الخلاب والسحر !
وأحس شيطان الأديب الفنان بين جنبيه ينفُض النوم
عن جفنيه ...

وألغى نفسه يهجس :

ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ... للاستمتاع خلقت
الجمال ، وللفن وهبت الحرية والانطلاق !
وإذا لسانه يترنم بذتف من الشعر فى التعبد بالجمال ،
والتغنى بالحسن .

يبد أنه ما عتم أن أحس مارد التحفظ يشرب من أعماق

نفسه ، ويطلق زئيره المدوّى ... وسرعان ما اشتبك شيطان الفن
ومارد التحفظ ، ودارت بينهما المعركة حامية الوطيس ، فاهتز
جسمان الشيخ هزة عنيفة ، ففزع إلى داره نجاءً بنفسه من حرّ
هذا العراك ، ودخل الدار تنتظمه قشعريرة ، ولسان حاله
يهتف بأهله :

أدركوني فإني محموم !

ثاب الشيخ إلى هدوئه ، فعجب من نفسه : كيف بقى ساعة أسيراً
لتلك الهواجس والنزعات ؟ إنها حقاً خدعة شيطان رجيم !
وسرت في جسمه رويداً روح الغيرة على الفضيلة ، فصيح
بملء فيه :

لا يكون لهذه الخزعبلات بقاء !

وماهى إلا أن انتفض الشيخ ناهضاً ، وتخيّر أصلب هراواته ،
وشمّر عن ساعد الضرب ، ومضى مهرولاً إلى الشاطئ شاهراً
سلاحه العتيّ في وجوه الغيّد الأمايلد من شبيهات حواء !
لم تسكن صيحات الشيخ إلا ثورة من نفسه على نفسه ، وإلا
حماية من نفسه لنفسه ، فهو ينادى قائلاً :

الفضيلة في خطر !

وما هو في الواقع إلا زاجرٌ نزعَ الفن والانطلاق في نفسه،
خشية أن تعدو على حصن الفضيلة بين حناياه !
لم تكن هذه المعركة التي أجج الشيخ لظاها على شاطئ
العرافة إلا رغبة النفس في أن تثبت أجلى إثبات أن الشيخ هو هو ،
فرع تلك الأعراق الكرائم من الأبرار الصالحاء أو إلى الكرامات !
وكلما أحسَّ الشيخ وهناً يسرُّبُ إليه من وليجسه نفسه
الفنائة ، رفع الصوت جهره يستعصم به من ذلك الوهن ، ويستمسك
إزاء تلك النزوات . . . !

اندفع الشيخ يُجْرى قلبه في أنهار الصحف ، تنديداً بتلك
المخازي التي تعمُر بها شواطئ المصايف ، مستهضاً العزائم والهمم
لمكافحة العُرى ، حتى اقترن اسمه بالشاطئ ، فأصبح عدوه الأول ،
ولسكنه العدو الشريف الظريف !

لا يفوت الشيخ أن الحياة تتطور ، وأن تصوير الفضيلة وتقدير
الأخلاق يتحول بين عصر وعصر .

ولا مريية أنه لا يتوقع بهذه الصيحات أن يقضى على ما تموج به الحياة
من تغير عقلي ونفسي ، فهو في دخيلة نفسه يَقتنع بأن يكون هذا
التطور منظماً يبرأ من طفرات التهور ومساوىء الإفراط . . .

إنه لأحكم عقلا وأنور بصيرة من أن يطمع في أن تنزل النساء
إلى البحر ملففات في الملاء والحبر...

ومن الطريف أن الغواني يسمعن صوت الشيخ العاصف يملأ
الأرجاء بالأصدا، ويرَيْنَ هِراوته الصلبة تَتَطَوَّح ذات اليمين
و ذات الشمال ، فلا ياخذهن الفرع منه ، ولا يشعرن بحفيظة له ،
بل إنهن ليدركن أن من وراء عنف الشيخ وشدة مراسه ، رقة
جانب وإيناس طبع ، وأنه مع هذا التحفظ والتحنُّث يحمل بين
جنبه قلب شاعر وروح فنان !

عبقرية الشيخ تتمثل فيما استطاعه من أن يصبَّ جام غضبه
و ثورته على الناس دون أن يستشعروا له مَقَمًا و كراهة ، بل لقد
أَنَسُوا به ، ومالوا إليه ، فكسب مودة الرجال والنساء على سواء ،
وهو لذلك جدير أن يلقب بالمؤدِّب المحبوب !

أليس من المفارقة أن يكون الشيخ اسمه « أبو العيون » ثم
يريدنا أن نغمض عيوننا عن بدائع الحسن وروائع الجمال ، كأنما
يريد أن يستأثر وحده بالنظر والاستمتاع ، إذ يكون وحده
حقاً « أبا العيون » ؟ ١٩

إسماعيل يتمور

لما سئلت أن أكتب في شأن شقيق « إسماعيل » ، ألفتني في
حيرة مضنية . هل ألبى دعوة السائل ، فأقدم صورة شخص من
أحب الناس عندي ، وأقربهم إليّ ، صورة قد يجد فيها القارئ
لونا من التحيز يثير استخفافه ؟ ... هل أتحمي لغيري ، يتحدث في
شأن مهما يحاول الإجادة فيه ، فهو ناقص مبتور ؟ ... وهل يستطيع
الغريب أن يبلغ الإخلاص في قوله ، والصدق في نظره ، مبلغ
الآخ الشقيق ؟

إذا لا بد مما ليس منه بدّ ، فلا تدرع بالشجاعة ، والله نصيري !
إذا شئنا أن نكتبه شخصية « الأمين الأول » ، تعيين أن نعود
القَهْقَرَى عشرات الأعوام ، فنصاحبه وقتا وهو صبيّ يافع ،
موزع الوقت بين المنزل والمدرسة .. في هذه السن المبكرة ، بدأت
شخصية « إسماعيل » تتضح ، وتخط لها طريقا معيننا في الحياة ،
وكلها تعاقبت السنون ، تجلت هذه الشخصية مكتملة ثابتة المعالم ...

كان يعتز دائماً بمنزلته في الأسرة ، منزلة الابن البكر ، وأراد بدافع — غير واع — أن يثبت لنا جدارته بهذه المكانة ، فاتخذ له بيننا شخصية « الزعيم » .

وكنّا إخوة ثلاثة ، أولنا « إسماعيل » ، وثانينا « محمد » ، والثالث : كاتب هذه السطور . ومع أن البَوْن لم يكن شاسعاً بين أعمارنا ؛ استطاع « إسماعيل » أن يُزَعِمَ علينا ، وقبيلتنا نحن هذه الزعامة راضيين ، إذ لمُحْنَا فيه مطلع رجولة مبكرة ، منظوية على رزانة وتعمّل ، بعيدة عن طيش الطفولة وعبث الصبا ، فإن شاركنا في اللعب ، وجدناه على الفور يتخذ فينا مكان الرياسة ، وحين ألّفنا فرقتنا التمثيلية البيتية ، اضطلع هو بأدوار الزعماء من قادة وملوك ، فلما اشتدّ عودنا ، وخطرنا في رحاب الشباب خطانا الأولى . أحجم « إسماعيل » عن مشاركتنا في لعب الكرة ، ونبأ العدو ، وما إلى ذلك من صنوف الملاعب . كذلك أعفى نفسه من التحرير في صحيفتنا المنزلية ، وانصرف مقبلاً على الدار ، يصرف شؤونها مقتدراً لا يعييه شيء . وإذا شهدنا في لبّوس الرياضة ، خارجين إلى الملعب ، يفترّ ثغرُه عن ابتسامة الأب العطوف !

وتلاحقت بنا الأعوام ، فإذا « إسماعيل » يشرف على مزارعنا

بالريف ، ويديرها في نشاط ودراية أسبغت على الوالد في أخريات أيامه طمأنينة وراحة بال .

وكان في كل أطواره تلك ، يمثل النظام والمثابرة وصور التقاليد في أدق مظاهرها ، فلا غرو إن جلس اليوم في منصب يتطلب ممن يشغله تلك الخصال التي لازمت « إسماعيل » منذ الصبا ، فصارت فيه الآن طبعاً أصيلاً لا يملك منه الفسك . . .

هذه صورة موجزة لـ « إسماعيل » ، حتى بلوغه منصبه الحاضر في القصر الملكي . وهي خليقة أن تثبت لنا أن الطفل في سنه الأولى لم يكن إلا صورة مصغرة من رجل المستقبل ، تجمعت فيها أمياله وخلال له .

ولما كنت الآن في معرض التحليل لشخصية « إسماعيل » ، فلزام على أن أستكمل صورته في مختلف نواحيها . وبتعبير آخر : يجب أن أتناول بالحديث جانباً مجهولاً من شخصيته ، فلقد فرضت عليه مقتضيات الحياة وملايساتها — من عهد الحداثة . حتى أصبح الأمين الأول — واجبات الإداري الموهوب الراعي للتقاليد ، فحذت من حريته ، وضيقته من آفاقه ، فمنعته أن يستمتع طفلاً بكل ما في الطفولة من مراح وصخب ، ودفعته وهو في زهوة الشباب المفعم بالغوايات أن يسلك طريق العمل المتواصل ،

وَيَقْصُرُ جُهدَهُ فِي الْحَصُولِ عَلَى الشَّهَادَاتِ الْعَالِيَةِ ، مُتَطَلِعاً أَبَداً
إِلَى مَرْتَبَةِ تَوَاتِي نَزْعَاتِهِ وَأَمَانِيهِ .

أَجَلٌ ، إِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْحَيَاةِ وَمَلَابِسَاتِهَا قَدْ صَبَغَتْ حَيَاةَ
« إِسْمَاعِيلِ » ، بَلَوْنَ لَمْ يَكُنْ مُشْرِقاً كُلَّ الْإِشْرَاقِ ، نَخَلَعَتْ عَلَيْهِ فِي
سَنٍ مُبَكَّرَةٍ وَقَارَ الشَّيُوخُ وَحَنَكَةُ الْمَجْرِبِينَ ، وَقَدْ قَابَلَ « إِسْمَاعِيلِ » ،
هَذَا بِالرِّضَا ، وَأَذْعَنَ لَهُ بِالطَّوْعِ . وَلَسَكُنَ « الطَّبِيعَةُ » ، الْجَبَّارَةُ لَمْ
تَخْضَعْ وَلَمْ يَسِرْ لَهَا عَزَمٌ ، فَانْطَلَقَتْ تَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ لَتَنْتَقِمَ مِنْ جِدَّةِ
« إِسْمَاعِيلِ » ، وَوَقَارِهِ ، وَلَتُنَالِ مِنْ مَجَالِ الْحَيَاةِ مَسَرَاتٍ تَعْوِضُهَا عَمَّا
فَقَدْتَهُ وَمَا تَزَالُ تَفْقِدُهُ ، فَظَهَرَ عَلَى الْآثَرِ فِي شَخْصِيَّتِهِ جَانِبٌ آخَرٌ
لَهُ خَطَرُهُ .

وَإِنِّي إِذَا عَزَمْتُ رَفْعَ السِّتْرِ عَنْ هَذَا الْجَانِبِ ، أَرَانِي قَدْ أَقْحَمْتُ
نَفْسِي فِي مَا زُقْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ أَيْنَ مِنْهُ سَبِيلِي إِلَى الْخُلَاصِ ؟
وَقَبْلَ أَنْ أَفْضِيَ إِلَيْكَ بِالسِّرِّ السَّكِينِ ، أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكَ فِي
رَحْلَةٍ قَصِيرَةٍ إِلَى « مَسْكَبِ الْأَمِينِ الْأَوَّلِ » ، فِي قَصْرِ عَابِدِينَ . فَإِذَا
مَا اجْتَرَزْتَ عَتَبَةَ الْبَابِ ، طَالَعَكَ عَلَى الْفَوْرِ شَخْصُهُ خَلْفَ مَسْكَبِهِ ،
وَهُوَ آخِذٌ بِسَمَاعَاتِ « التَّلِيفُونَ » ، يَصْغِي إِلَى مَا تَنْقُلُهُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَادِيثَ
مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَاللَّهْجَاتِ ، فَيَجِيبُ عَلَيْهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَسَبِقاً غَيْرَ
مُتَعَسِّرٍ . وَأَمَامَهُ كُتُومَاتٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ يَرْمُقُهَا وَزَمَقُهَا فِي عَتَابِ

وحذر ، وهو في الوقت نفسه لا يفوته أن يحتفي بوفود الزوار التي لا ينقطع لها سيل ، يسأل هذا عن صحته ، ويبادل ذلك حديثاً يتعلق بالجو ، ويحامل ثالثاً بحملة خاطفة ، ورابعاً بتحية تتجمع فيها أصول اللباقة والأدب الرفيع . وقد تكون مشتبهاً معه في نقاش مهم ، فترفع بصرك إليه فلا تجده ، فترسل بنظرك فيما حوله تبحث عنه ، فإذا هو في البهو يستقبل جمعاً من الوفود ، مستمعاً إلى خطبائه ، مجيباً كل خطيب بما يُشليج صدره ، ثم لا تلبث أن تراه قد عاد إلى مجلسه الأول معك يتابع نقاشه في بشر وطلاقة . . .

وهناك فئة من الزوار يصح أن نسميها «الاطياف» وأكثرها من ذوي المقامات الممتازة ، فهي لا تكاد تبدو في الحجرة حتى تحتفي في لمح البصر ، ولا يملك إسماعيل ، إلا أن يغدو طيفاً مثلها ، يلاحقها ويتابعها ، فلا تطفن إلى مكانه إلا بنبرات صوته . . . يقع هذا كله ، ورهط من إخوانه موظفي القصر ، واقفون أمام مكتبه ، مرتقبون مقدمته ، يحمل كل منهم إضمامة أوراق ، يبتغي عرضها عليه في خلوة عاجلة .

خلف هذه التكاليف والمراسم ، يكمن الجانب الفذ من شخصية «إسماعيل» ، وقد حان أن نجلوه لأعين القراء . . . هذا الجانب يمثل (١٠)

« إسماعيل ، الساخر المتهم . فأما رمز هذه السخرية وهذا التهمك ، فهو ابتسامة خفيفة تعلو شفثيه ، هي في مظهرها كسطح البحر الهادئ تحسبه ضحكة ضاحا ، ولكنه في الحق غمير بعيد القاع . . . وإن إسماعيل ، ليعتز بهذه الابتسامة اعتزازه بأعلى الأشياء ، وهي في نظره بمثابة خط « ماجينو » أو ، سيجفريد ، يحشد خلفها جيوشه المنظمة ، ثم يطلقها عند الحاجة لا لتقتل وتدمر ، بل لتثير روح الدعابة اللطيفة ، وتُحيل ذلك الجو المتحفظ الوقور جواً رقيقاً يشمل الإيناس والبشاشة .

وإني لا أخشى شيئاً خشيته هذه الابتسامة ، فإن لمحت طيفها يتخايل على وجهه ، أيقنت أن ثمة إعصاراً من التهم قد أخذ يتجمع في صمت وسكون ، فأعدّ العدة فوراً للفرار ، وإلا كنت في الفخ ضمن المصيد !

ومادام هناك تهكم ، فواجب أن تكون هناك فئة المتهم عليهم . وأولئك هم الذين يسميهم رفعة « حسنين باشا ، بـ « الضحايا » . . . وإننا نحمد الله على أن « الأمين الأول » ، قد قصر تهكمه الصامت وعبثه الخفي ، على طائفة محدودة مختارة ، يستبقها في مجلس خاص ، ثم يطلق الفرد أو الجماعة منها ، كلها استبدت بنفسه رغبة التهمك الجماعة ، ويجعل منها مفضلاً وسلاوى .

وإنك لتعجب من أن هذه الطائفة المختارة ، دائمة التجدد ،
والسر في ذلك أن له « إسماعيل » عيوناً ومندوبين يذهبون في مختلف
المناطق ، هنا في « القاهرة » ، وهناك في الريف ، يتصيّدون
الشخصيات البارزة ، ويقدمونها له غنائم لا ينقطع لها ورْد !

ولرفعة « حسنين باشا » غرام بضحايا « إسماعيل » ، ولا يسعنا
أن نُخلّيه من تَبِعة وجودها ، فهو شريك « إسماعيل » فيها ، وإن
كان يفضل أن يرعاها على البُعد .

ولا يكاد « حسنين باشا » يتقدّم القصر ، ويقع بصره على
« الأمين الأول » ، حتى يسأله في لطفة عن « الضحايا » . فيأخذه
« إسماعيل » بيده إلى مجتمعهم العجيب ، فإذا هم مجموعة نادرة من
الطوائف البشرية ، لو صادفتها في مُتحف من متاحف التاريخ
الطبيعي لم تصدّق عينيك . . . مجموعة تحوى شخصيات من مختلف
العصور والأجناس : هذا تركي من أترك القرون الوسطى ، يميل
إلى مملوك من حكام الأقاليم في العهد الغابر ، بينهما شيخ من معاصري
« الجبرتي » ، على مقربة منهم ألباني من معاصري العهد العثماني ،
يجالس عالماً لم يسمع بعلمه أحد ، وطبيباً لم يتجاوز اسمه
عتبة حجرته . . .

وإن هذه الطائفة الكريمة لتقف صفّاً أمام الصديقين ،

يَعْرِضُ ضَائِحَاتُهَا كَأَنَّمَا يَعْزِضُ ضَائِحَاتُ قُرْءَانِ شَرْفٍ... ثُمَّ تَوَزَّعَ عَلَيْهِمْ
بَعْدَ ذَلِكَ أَقْدَاحُ الْقَهْوَةِ، وَلَفَائِفُ التَّبَغِّ، وَمَاحِضَاتُهَا !

وَلَعَلَّكَ لَا تَعْرِفُ أَنَّ نَزْعَةَ التَّهْكِيمِ الْخَفِيَّةِ الْقَابِضَةِ خَلْفَ شَخْصِيَّةِ
«إِسْمَاعِيلِ»، الظَّاهِرَةِ تَنَافُسَهَا نَزْعَةُ مِمَّاثِلَةٍ فِي شَخْصِيَّةِ «حُسَيْنِ بَاشَا»،
فَإِذَا سَمِينَا «إِسْمَاعِيلَ» : «بِمَوْلَايِرِ الصَّمَامَتِ»، أَوْ : «الْمَدَاعِبِ
الظَّرِيفِ»، لَمْ نَجِدْ «لِحُسَيْنِ بَاشَا» أَلْيَقَ مِنْ فَوَلْتِيرِ الْهَادِي، أَوْ :
السَّاحِرِ الرَّشِيقِ !

تِلْكَ صُورَةٌ سَرِيعَةٌ، أَقْدَمَهَا لِلْقُرَاءِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَإِنِّي لَمَوْقِنٌ
بِأَنَّ الْحِسَابَ سَيَكُونُ بِسَبَبِهَا غَيْرَ يَسِيرٍ، عَلَى أَنِّي فَتَوَضَّعْتُ أَمْرِي
إِلَى اللَّهِ ...

بشرفارس

تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية، ولا أدري متى جرى ذلك على وجه التحقيق، وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحثة معروف، سمعتُ به، ولكنني لم أراه بعد.

فذهبت وقد تخيلتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضراته... رجلاً أشرف على الخمسين، بشارب مهدّل، وعينين مجهودتين، وصوت مُتسّاً كَلَلٍ. فما كدت أستقر في مكاني من القاعة، وأرفع بصري إلى المحاضر، وقد اعتلى منصة الخطابة، وبدأ يلقي محاضراته، حتى طالعنتني صورة أدهشتني جدّ الدهشة رأيتني أمام فتى كله شباب وحيوية، بعينين تلعبان ذكاء : له وجه صبيح، بشارب طرير مشدّب على الطريقة الفرنسية، وقوام إغريقيّ يذكّرنا بتمثيل «براكسيثيل»!

فتشكمتُ في الأمر، وحسبتُ أنه قد جدّ تغيير في المحاضرة

والمحاضر ، وانحنيت على صديق بجوارى أتبين منه حقيقة الحال ،
فأكد لي أن المتكلم هو الدكتور « بشر فارس » نفسه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلقي بحشه بصوت جميل النبرات ،
في لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة الأداء ، وحسن اختيار المواقف
الجل ، وحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك في اتساق
وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها في اللحن الفني البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضر كان قابضا
على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره في حنكة ، إدارة الربان
الماهر لباخرته وسط العُباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيرا
إلى شاطئ السلام !

منذ ذلك اليوم عرفتُ الدكتور « بشر فارس » ، وما أسرع
أن توثقت صلاتي به .. فتجلت لي فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك
العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الودود المرح ، فلا بتسامة
اللطيفة التي طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره ، والنكتة
المصرية اللبقة تظل محلقة في سماء مجاسه . وقد يمضي في حديثه
الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره عن « باريس » ، وما شاهده
في دُور العلم بها ، وما لقيه في مغاني عبثها ولهوها . حتى ينتقل بك

إلى قهوة « الفيشاوى » ومطعم « الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى
الأخضر ، وصحاف « الطعمية » ، الفاخرة تحيط بها أصناف
المشهيّيات . . ومن ثمّ يحتفى أمامك العالم الجّهْمِيذ ، ليحل مكانه
« ابن البلد » الوجيه العريق فى المصرية ، فلا يعوزه إلا « الثلاثة »
يديرها على رأسه ، فينطلق فى مسارح « سيدنا الحسين » يلوح فى
يمينه بعصا « الفتوة » !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور « بشر » تريح الأعصاب
وتملأ القلب من إيناس ، وتحوّل نظر المرء إلى الناحية الرّفاقة
الجميلة فى الحياة .

صاحبنا الدكتور « بشر » وقتا ، ثم طلبناه حينما فلم نجده
فكأنه « فصّ ملح وذاب » كما يقولون . . ثم عاد إلى الظهور ،
ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقا فى الطريق مهرولا
لا يقر له قرار ، وهو محاط بشِرذمة من النجارين والحدادين
والطلّائين ، فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار
إلى مرافقيه ، وقال ، وهو يتأفف فى لهفة المكدود : ألا ترون أنى
مشغول ؟ ! ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صنّاعه
فى مناقشة حادّة ، فلا نشك لحظة فى أنه ودّع العلم والأدب ، والتحق
بزمرة « المقاولين » !

وبينما كنا في مجلس نذكر صديقنا « بشرا » بالخير ، ونأسف
لتوديعه الأدب ، إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد
في « جاردن ستي » ، فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا في
مُتَحَفٍ قتيّ ، كل ما فيه يَشِفُّ عن ذوق سليم غاية في السمو .
وجعل صاحب الدار يمر بنا في مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة
على أحسن طراز ، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو
يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة ظريفة محلاة
بامضاء فنان ، وهناك صحفة من الفن الصيني الثمين يرجع تاريخ
صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعدا لطيفا على شكل رَحْلٍ
من رَحَالِ الجِمال . وفي ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرَّفُّ
الساذج البديع ، يحتضن « تاييس » و « مدام بوفاري » و « أفرو ديت »
وهن في أثوابهن الغالية الفاتنة !

فقطنا بعد لأيٍ إلى سرّ غيبة الصديق ، وطفقنا نطوف معه
ذلك « المَزَار » المبتكر . . . حيث يَعْبِقُ في جوه عطر الفن
وتشمله روح الجمال !

طابع الفن والجمال يَسِسُ حياة الدكتور « بشر » بأكلها . .
يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه ، فإذا ما قرأت له
مقالا رأته أَلْبَسَ الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظا ينتقيها

في حكمة ، وينسقها في صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العقْدِ على صدر الحسناء !

فإذا لقيتَ شخصه ، ألفت أملك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والخُلَّة ، ليخرج منها صورة فنية طريفة .

ولصديقي « بشر » شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر في عام مضى مسرحيته الرمزية « مفترق الطريق » . فتألاّت نجما جديدا في سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ فترة كتابه : « مباحث عربية » ، فإذا هو سفر قد لا نغالي إذا قلنا إنه في طليعة الآثار العلمية التي تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة في التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علمي خيَّطه علماء الاستشراق .

ونحن اليوم نتتبع خطوات « بشر فارس » وهو يروح ويغدو ، ينسج الصخر آناً في مفاوز العلم ، وينسظم الزهر حيناً في خمائل الأدب ، وتتسامل في حيرة : إلى أي مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيته المستقلتين ؟ وهل في الإمكان أن يجمع المرء

بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر في دخيلة نفسه ذلك التناافر القائم
بين هذين العنصرين النفيسين ، اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع
أحدهما زميله واستعبده !

وللدكتور « بشر » نواح خفية ، لا يعرفها إلا أصدقاؤه
الخلصاء ، وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ... فقد يحاسبني على
إفشائها حسابا عسيرا !

إن صديق « بشرا » - ولنخفض أصواتنا قليلا - رجل ذواقة
في الماء كل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة بكل
ما تزدان به الموائد ... وإنها للمتعة حقا حين تسمعه يتحدث عن
صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ، يروى لك - وعينه
تلمعان لمعان المرق الشهى - كيف يشتري بنفسه الزبد الطازج ،
ويلتقى عند الجزار أطايب اللحم ، وكيف يقف أمام الفرن يجهز
الصنف الذي يحب ، ثم لا يلبث أن يأتي عليه ولما يتم نضجه على
النار ، مقتفيا أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا « بشر » جولات موفقة في مطاعم المدينة ، فهو
إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعنى بمكانه من المائدة ،
بل يطلب أن يدلوه فورا على المطبخ . وثم يكشف عن القدور

يتفحصها تفحص عارف ، ثم يشير أخيرا إلى واحدة منها .
فيحضرونها له بأكملها . . . ويشمر الدكتور عن ساعد الجوع
غير معني وقتئذ بأناقته ، وينسكب على القدر ، فيأتي - في
لحظة خاطفة - على ما تعجب الطاهي في صنعه ساعات طويلة !
وإني أنصح - نصيحة مجرب ! - لمن أصيب في معدته ،
ويرغب في دواء ناجع لإصلاحها أن يأتي بالدكتور « بشر » عن
يمينه و « زكي طليمات » عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتناضلان
في معركة القدور كبرا وفرا . . . فإنه لا يُعَسِّم أن يشعر بمعدته
تتصايح في ثورة جامحة ، وإذا به ينطلق هو أيضا في صحاف الطعام
يفتك بما فيها فتك مغوار !



زكى طليحات

منذ أربعين سنة وَنَيْفَ ، سَجَّلَ أَصِيلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ ،
بِأَكُورَةِ لِقَائِي لِصَدِيقِ « طَلِيحات » .
وَأَرْجُو أَلَّا يَعْجَلَ صَدِيقِي بِالْإِنْكَارِ عَلَيَّ فِي عِدَدِ هَذِهِ
السَّنِينَ ، فَإِنْ هَذَا اعْتِرَافٌ مِنِّي يُلْزِمُنِي وَيُعَفِّيه مِنَ الْإِلْزَامِ ،
وَأَنَّهُ لَطَلِيقٌ مِنْ تَبَعِيَّاتِهِ مَا وَسِعَهُ جَهْدُ الشَّبَابِ !
كُنْتُ إِذْ ذَاكَ فِي مَوْتَنَفِّ الصَّبَا ، أَسْكُنُ بَيْتَنَا الْعَتِيقَ فِي حَيِّ
« دَرْبِ سَعَادَةِ » ، وَكَانَتْ حَجَرَتِي تَشْرَفُ عَلَى حَدِيقَةِ الْبَيْتِ الَّتِي
تَتَكَثَّفُ خِمَائِلُهَا ، وَتَتَضَايِقُ مَسَالِكُهَا ، فَتَرِيكَ الْعَابَةِ فِي صُورَةِ
مَصْغُورَةٍ .

وَبَيْنَمَا أَنَا أَطْلُ سَاعَةَ مِنَ النَّافِذَةِ ، إِذْ لَحْتُ غَلَامًا يَشْهَرُ فِي
يَمِينِهِ مُدِيَّةً يَبْرِقُ حُدُودُهَا تَحْتَ شِعَاعِ الشَّمْسِ ، وَهُوَ يَعْدُو خَلْفَ
صَبِيَّ الْبُسْتَانِ ، يَحَاوِلُ اللَّحَاقَ بِهِ ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ سَلَطَ الْمُدِيَّةَ عَلَيْهِ يَرِيدُ

إعمالها في رقبته ، فبادر بعض خدم البيت إليهما ، وحالوا بينهما
قبل أن يسبق السيف العذل !

وبعد ساعة أو بعض ساعة ، دُعيتُ إلى لقاء زائرة من كرائم
السيدات ، فلما خففتُ إليها قدّمتُ إلى صبيها ما كدت أراه حتى
تبينتُ أنه هو صاحب المُدَيّة ، وبطل موقعة البستان !
فاستشعرتُ الخشية منه ، وتباطأت عن تحيته ، ولكنه أسرع
يجذبني ، فنزلنا إلى الحديقة نلعب معا .

ومرت لحظات في صحبة هذا الرفيق الجديد ، ملأتني أنسابه .
وتطلعا إليه ، فقد هزّ سمعي بحديثه العامر بالطرائف والأعاجيب .
ولكن منظر المدينة ، وهي تشرّيب من جيبه ، كان يعمّكر على
طمانيتي إليه ، وجعلت أستدرجه في الحديث مثرقاً ، لا تعرف
سرّ حملته على صبي البستان ، فأنحى على ذلك الصبيّ يصف غلظته
وتوقعه ، وينحى عليه وقوفه في طريقه ، إذ منعه من تسلق الشجر ،
وانتزع شيء من أغصانه .

وانبرى رفيق يقول ، وقد استل المدينة من جيبه :
لولا ازدحام الناس على ، ومنعهم إياي ، لرؤيتُ أرض
البستان بدم ذلك الغرّ المأفون !
وثارت بي مشاعر مختلفة ساقت يدي إلى تلك المدينة في محاذرة

واحتراس ، فما إن قلبتها ظهرا وبطنا حتى استبان لي أنها سكين من
صفائح يتشظى مع الريح !

ومال على الرفيق يقول في زهو ومرح :

لوزرت بيتي لأريتك ما أملك من عُدّة الحرب والضرب ،
وأدوات الطعن والفتك !

وتابع خطواته معي ، وهو يبسط لي أنباء مغامراته التي
يستخدم فيها تلك العدة وهذه الأدوات ، مطنبا في الوصف ،
مسترسلا في الحديث ...

وذهبت إليه في منزله يوما ، مصحوبا بشقيقى الكبيرين ، فتبينت
صِدْقَه فيما كان يخبرني به ، إذ بهر عيني ما عرضه علينا من عتاد
حربي : خناجر وأسياف ، بنادق وقذائف ، ولكنه عتاد زائف
من رميم ومُحطام !

كذلك كانت فاتحة التعارف بيني وبين صديقي « طليمات » ...
ومنذ هذا الحين ، تواصلت بيننا المودة في ركب الأيام .
وكلما تعاقبت علينا العهود تسكشفت لي جوانب من تلك
الشخصية الزاخرة بالطريف العجيب من شمائل وملكات ...
ولا مَنجاة لي من الإقرار بأن صديقي « طليمات » ، إذا ضاق

اليومَ ذَرَعًا بِأَثْقَالِ التَّمْثِيلِ ، فَإِنِّي عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ مُسْتَوِلٌ ، وَعَلَى
مِنِ التَّبَعَةِ نَصِيبٌ غَيْرُ مَنْكُورٍ .

لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَشَقِيقَايَ ، نَأْنِسُ بِدَعْوَتِهِ إِلَى مَشَاهِدَةِ
الْمَسْرَحِيَّاتِ فِي فِرْقَةِ « اسْكَنْدَرِ فَرْح » وَفِرْقَةِ « سَلَامَةِ حِجَازِي »
نَطَاوِعَ بِذَلِكَ مِيلَنَا لِهَذَا الْفَنِّ الْجَمِيلِ ، وَنَجَارِي طُمُوحَنَا إِلَى التَّزُودِ
مِنْهُ ، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِهِ . وَعَلَى مَرَّ الْأَيَّامِ يَوَاقُ هَوَانًا لَهُ ، وَبَلَغَ بِنَا
التَّمَعُّقُ بِهِ كُلَّ مَبْلَغٍ ، حَتَّى جَعَلْنَا مِنْ أَشْخَاصِنَا أَبْطَالِ تَأْلِيفِ وَتَمْثِيلِ ،
وَمِنْ أَهْبَاءِ دَارِنَا مَسَارِحَ ، وَمِنْ مُلَامَاتِ الْأُسْرَةِ وَمَفَارِشِهَا أَسْتَارًا
وَمَنَاظِرَ ، وَمِنْ أَهْلِ الدَّارِ وَحَاشِيَتِهَا وَزَوَارِهَا جُمْهُورًا يَشْهَدُ مَا نَقْدُمُ
مِنْ مَسْرَحِيَّاتٍ .

وَكَانَ أَكْبَرُ الظَّنِّ أَنْ تَحْبُو تِلْكَ الْجَذْوَةُ الصَّبِيَّانِيَّةُ بِانْقِضَاءِ عَهْدِ
الْحَدَاثَةِ ، وَأَنْ تَنْطَوِي تِلْكَ الْأَلَاغِيْبُ بِاسْتِقْبَالِنَا جِدًّا الْحَيَاةَ فِي
عُنُقِ الْغُفْوَانِ الشَّبَابِ .

وَلَسَكُنَ الْأَقْدَارُ دَبَّرَتْ لَنَا حَادِثًا كَانَ لَهُ كَبِيرُ أَثَرٍ فِي حَيَاتِي
وَفِي حَيَاةِ صَدِيقِي « طَلِيحَات » . . . ذَلِكَ أَنَّ شَقِيقِي الْأَوْسَطَ
« مُحَمَّدَ تَيْمُور » رَحَلَ إِلَى « بَارِيْس » يَسْتَكْمِلُ دِرَاسَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ ، حَامِلًا
مَعَهُ قَبْسًا مِنْ تِلْكَ الْجَذْوَةِ الَّتِي تَلْهَبُهُ شَوْقًا إِلَى فَنِّ التَّمْثِيلِ ، فَبَقِيَ ثَلَاثَةً
أَعْوَامَ يَتَنَقَّلُ فِي مَجَالِ الْفَنِّ ، وَيَغْتَرِفُ مِنْ مَنَاهِلِهِ ، مُطْلَقًا لِنَفْسِهِ الْعَنَانَ .

وعاد أدراجته إلى ربوع الوطن، يقصّ علينا روائع ما شهد،
ويتحدث عن الفن الأوربي حديث دراسة وشرح وتحليل. تشييع
في لهجته حماسة في الوصف، ونشوة في العرض، وحمية تفصح
حرارتها عن فورة إحساس، وصدق إيمان...

وأبي د محمد، إلا أن يشرع الطريق، ويشق الأفق، فاقترح
الغبار بنفسه مؤلفا وممثلا ومرشدا على وجه عام... وكنا — أنا
ود طليعات، — من ورائه، نقفو خطاه، ونسير في ركبه، يحدونا
تطلع وإعجاب.

وكان شقيقى كلما ضرب في لجة الفن ضربة، اهتز صديقى
« طليعات » هزة... حتى حان الوقت الذى فقد فيه الصديق توازنه،
فطرح عنه أغلال التقاليد؛ تذيبه حمى التمثيل، وقطع دراسته العليا،
ليلحق بإحدى الفرق التمثيلية القائمة فى تلك الأيام.

ومن ثم بدأ « طليعات » عهدا جديدا فى حياته، مازال يواصل
تجديده وتنميته، وها هو ذا اليوم يتمتع فيه بالصيت الطائر، والمجد
الزاهر. ولكنى على الرغم من ذلك لا أدري، ولا يدري هو نفسه
الآن: أكان مخطئا فى إقباله يومئذ على ذلك العهد الفنى؟ أم كان
على صواب؟

لم يكن التمثيل فى تلك الحقبة إلا مجالدة صعب، واقتحام

عقبات ، واحتمال مكاره ، دون أن يسكون من وراء ذلك كله مغسّم
يُذكر ، أو جاه يشار إليه بالبنان . . .

بيد أن صديقنا ، طليحات ، ظل يطاول ويصابر ، حتى أشرف
على نهاية لم يأمن فيها على نفسه ، فأثر أن يعتزل هذا الجهاد العقيم ،
ضئلاً بوقت يضيع ، وشباب يذهب هباء .

دخل الشاب ميدان العمل الحكومى ، موظفاً فى « حديقة
الحيوان » ، وأخذ يرقب الفرص ، ويرصد الأحداث ، وهو لا ينفك
مفكراً فى ميله الفنى ، طلاعاً إلى فرج قريب .

وفى أرجاء تلك الحديقة الرحبية كان أخونا « طليحات » يحول
وحده ، مطلقاً لخياله أجنحة خفاقة ، واجداً لفكره مسرّحاً
بعيد المدى .

كانت هذه الفترة من حياته فترة تأمل عميق ، وفرصة دراسة
واطلاع ، ولقد أفاد من هذه الأيام الهادئة فائدة صاحبته ثمارها
فى مختلف مراحل حياته من بعد .

ولا مرية فى أنه قد لقى فى عشرة الحيوان الطيب البرى ،
من الصفاء والطمأنينة ، ما نفّس عنه كربته التى عاناها فى صحبته
مع الإنسان !

بضعة أعوام قضاه صامتاً ساكن الطائر ؛ يرتق من أعصابه

ما تَقْتَنَقَ ، ويأسو من جراح قلبه ما كان دامياً .

ولكن هل يستطيع ذلك الشاب الثائر الطموح أن يُخْلِدَ
إلى دعة وسكينة ، وأن يأنس بالهدوء والركون ، إلا بمقدار
ما تئمل جراحه ، وتتجدد قواه ، ويزجج إليه موفور العزم والإقدام ؟
أو قادر هو على أن يبقى في « حديقة الحيوان » ، حبيساً يَقْنَعُ
بِعِشْرَةِ الْعِجَمَاتِ الطيبة ، مكفولاً له رزقه في رَغَدٍ وأمان ؟
حتى متى يغالب نزعة الفن الفوارة بين حناياه ؟

لاح له بغتة في الأفق نجم يلتمع . . .

أَنْجَمٌ سَعِدَ هُوَ ، فيتفاهل به ويستبشر ؟

لم يكن ذلك النجم الطالع إلا مباراة عقدتها الحكومة تشجيعاً
للتمثيل ، وتقديرًا لعشاقه ، فدخل « طليحات » هذه المباراة فيمن
دخل ، وخرج منها حاملاً قصب السبق . فهاهي إلا أن شَخَّصَ إلى
« باريس » مبعوثاً رسمياً للتخصص في دراسة فن التمثيل ، والتمرس به .
هذا طور جديد من أطوار حياة الصديق . . .

إنه طور حاسم تقرر به مصيره ، فليتقدم فيه ، مؤمناً بأنه
لا تحيد عنه من بعد ولا نكوص .

سنون قضاها « طليحات » في معهد الفن العتيق ، وفي ربوعه الأصلية ،
فلبث هنالك للفن ريباً ، يمرح في أحضانها ، ويغتنى بلبانها

ظل « طليحات » في « باريس » هَيْمَان عطشان ، ينهل من
الدراسة الفنية المنظمة في مختلف مناحي التمثيل ؛ ورجع إلى وطنه
وقد اختمرت خبرته بالفن ، واستوى نَمُوذَجَا جديداً للفنان
العليم ، تعتلج بين جنبات نفسه مطامح وآمال وأهداف .

واندفع الرجل في غَمَار حياته الجديدة ، مشرفاً على شئون
التمثيل في الدولة ، يحاول أن يبني ، وأن يقيم صروحاً ويشق آفاقاً ،
فكانت تعملو به الحياة وتهبط ، وتعبث به الرياح أحياناً يمنية ويسرة ،
إلا أنه ما فترت له همة ، ولا أدركه كلال ، فاستطاع بعد لآي أن
يصل ، وأن يُشْرِف من بنائه العالی إشراف منتصر غلاب !

برهن « طليحات » على أنه ممثل راسخ القدم ، وأنه مخرج في
الطليعة ، يسير التطور ، ويقتبس الطريف ، وأنه أستاذ أصيل
يطبع جيلاً بطابعه الجديد ، جيلاً من شباب الفن على نهج قويم . .
وها هو ذا معهد التمثيل — غَرْس يديه ، وثمره جهاده — كأنما هو
إذاعة موصولة تَتَغَسَّنِي باسم « طليحات » !

هل لنا أن نتسامل اليوم :

أى باعث نفسى كمين هتف بذلك الفنان ليؤدى رسالته فى الحياة ؟
إن المستبطن لـخفايا هذه النفس ليرى لزاماً عاينه أن يجاهر بأن
ذلك الباعث القوى لم يكن إلا الشعور بالنقص .

وإن هذا الشعور الخَلَّةَ عجيبة تتدسس إلى كبار النفوس ،
فتعمل فيها عمل السحر . . .

هذه الخلة التي توصف بالنقص ليست إلا وسيلة إلى الكمال !
لا عظيم في منحى من مناحى العظمة إلا يدين لهذه الخلة بما
توافر له من تبرز واستعلاء . . .

تُرى أىَّ نقص ذلك الذى أحسَّ به الناشئ الموهوب
طليعات ، فعمل فى نفسه ، وحفزه إلى أن يستكمل مافات ،
ويتعوَّض مما خسر ؟

نشأ الصبي فى بيت نعمة ، يتقلب فى أعطاف رفاهة ، حتى
ألف الحفاوة والإعزاز ، ولكن حوادث الدهر مكرت به ،
وبيّنت له غَدْرَةَ عصفت بذلك التنعم واليسار ، فألقى نفسه
يواجه حياة تنكر له ، وتريده على غير مآتعود ، وتلزمه التعويل
على جهده فى أمره ، فانطوت نفسه على رغبة فى التعويض ، هى
رغبة الظهور ، هى الطموح إلى أن يُحمدق به أنظار التقدير والإعجاب .
ولقد باكرته تلك النزعة فى عنفوان صباه ، فلم تجد لها متنفساً
إلا فى ضروب من المعابشات والمشاكسات عليها سمات المغامرة
والبطولة ، وفيها دلائل الجرأة والتهور . وإنه ليطاوع تلك النزعة
الناجمة ، فيصطنع من الوسائل والأسباب ما يرضى به نفسه الجياشة .
وليس أدل على ذلك من حرصه على اتخاذ الصفائح سيوفاً

ورما حاً لمحاربة ونزال ، وليست مشاكسته لصبي البستانى اتى رويانا
قصتها فى مطلع هذه الكلمة إلا قطرة من ينبوع تلك النفس
النزاعة إلى غلبة وسلطان !

ولما شب " طليعات " أنس بميدان التمثيل ، إذ لقي فى رحابه
معواناً على الظهور ، واجتذاب الأنظار ، واستدرار الإعجاب ،
فما لبث أن تعلق به ، واندمج فيه ، وجند له مواهبه ، ولم يهدأ له
بال حتى أصبح من قاداته الأكفاء .

أمر عجيب فى حياة " طليعات " الفنية ، كان موضع ملاحظة
وتساؤل ، ذلك أنه يبلغ القمة حين يقوم بتمثيل أدوار الأشرار...
فهل هناك صلة بين طبيعة الفنان ، وبين قدرته على التعبير ،
فإذا كان شريراً استطاع أن يعبر عن الشر التعبير الأقوى ، وإذا
كان طيب النفس استطاع أن يمثل الطيبة فيما ينهض به من فنه ؟
الجواب عن هذا السؤال فى نظرى هو أن الفنان دائماً يجيد التعبير
فى الناحية التى تعوزه فى طبيعته الكامنة ، فإذا كان يائس النفس غلبت
عليه فى فنه رغبة المرح واللهو ، وإن كان ضحوك السن ممراحاً لم
يعجزه أن يعبر فى فنه عن الجدة وتمثيل الشعور الحزين . وقس على
ذلك تشدق الجبان بالشجاعة ، والمتلاف بالحرص ، والعاجز ببعد
الهمة . وقد وجدنا أمثلة ذلك فى الشعراء . فهذا جرير ، الذى لم
تسكن له بالمرأة مواصلة ومغامرة ، كان أرق الناس غزلاً . وبجانبه

« الفرزدق ، الذي عُرف بأنه زِترُ نساء لم يسكن له غزل مشبوب .
وكذلك نجد أمثلته بين رجال السنين المعاصرين فهذا « شارلي
شابلن » ينحو في حياته الخاصة منحى العزلة والنفور من المجتمع
والانطواء على النفس ، مع أنه أقدر ممثل هزلي عرفه العصر الحديث
في العالم الفني » .

وأكبر ظني أن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة ، هو أن أولئك
الفنانين يكملون في عملهم الفني ما حرموه في حياتهم الخاصة التي
هي أنها لهم طبيعتهم الظاهرة .

وقياسا على هذا التفسير يمكننا أن نعرف : لماذا ينجح صديقنا
« بطليمات » في تمثيل أدوار الأشرار ، فقد ظهر في « شيلوك » المرابي
في مسرحية « تاجر البندقية » وصاحب المصنع الرغد في فلم
« العامل » وفي غيرهما من الشخصيات الشريرة ممثلا بارعا يتقمص
الشخصية التي يمثلها تقمصا يدعو إلى الإعجاب ، ويأسرك بمواقفه
الفنية المحكمة .

وكل الذين اتصلوا اتصالا وثيقا « بطليمات » لا يخفى عليهم أن
طبيعته الأصلية تنطوى على الطيبة والرفق والدمائة ، وأنه مُلِمٌّ
بإنسانية خيرة يشيع منها الوفاء والنبيل وكرم المعاشرة .
ويلوح لي أنه حين واجه الحياة بهذه الخصال الرفيعة صادفته
ألوان من المعاكسة وسوء الجراء ، حالت بينه وبين ما يهدف إليه

من مثل عالية تعتلج في قلبه ، فيرغب أن يحققها بالوسائل الشريفة التي ترسمها له أخلاقه . وسرعان ما استبان له أن للنجاح وسائل لا تتفق دائما مع الرفق ولين الجانب ونبل الطبع ، فكان لذلك في نفسه أثر ظل مكبوتا ، حتى وجد له نَحْرَجَا فيما يقوم به من الأدوار .

فهو بتمثيله الشخصيات ذوات النزعات الشريرة التي استبان له أنها الناجحة في ميادين الحياة — يُرَضَى الجانب الذي لم يستطع تطبيقه في حياته العملية ، فلم يجد إلا أن يستكمل تمثيلا في حياته الخيالية . وبذلك انتقم بالفن من المجتمع الذي أساء إليه ، ومن المُشْئَلِ التي وقفت حائلا بينه وبين النجاح الذي كان يُمْنِي به نفسه في مجتمعه !

وإذا كنا قد أعجبنا « بطليحات » في هذه الأدوار ، فلا ننسى أنه اشترى هذا الإعجاب بـشمن عظيم ، هو إباؤه أن يكون شريرا عمليا في حياته الاجتماعية .

ونحن نحمد الله على أنه وجد على منصة المسرح . وعلى الستارة الفضية ، مُتَنَفِّسًا يحفظه لنا من الإخلال بمبادئه السامية وأخلاقه الحسان في واقع الحياة ...

نجيب الريحاني

شابّ موظف في إحدى الشركات الأجنبية ، يعمل هناك بأجر متواضع ، لا همّ له إلا أن يحيا في بيئة عمله حياة طيبة ، وليس له من هدف إلا أن يحظى بمكافأة أو درجة ، وقد يسمو به التفتي إلى أن تحلّم بمكان الرياسة في القسم الذي يعمل فيه ، ليستمتع بما يستمتع به الرؤساء من سلطة وجاه .

ذلك الشاب هو « نجيب الريحاني » ، أو — على الأصح — « نجيب ريحانة » فقد كان مشهورا بهذا الاسم قبيل الحرب العالمية الأولى .

تخرّج في إحدى المدارس الفرنسية ، فتزوّد بثقافة أجنبية ، أغرته بالمضى في المطالعة ، يشغل بها أوقات فراغه . وألقى نفسه ببذل الموفور من عنايته للأدب التمثيلي ، إذ آنس من أعماق قلبه استجابة غامضة لهذا اللون من الأدب الفني .

ولم يلبث ذلك الميل أن ذكا وتوقّد ، فأصبحت المسرحيات تملك عليه نزعة المطالعة ، وإذا هو يرتاد دور التمثيل التي كانت قائمة في هذا العهد ، ويتربّب قدوم الفرق الأوربية التي كانت تزور مصر ، في مطافها بين الحين والحين .

واستبدّ به الميل إلى مشاهدة التمثيل ، حتى أوقعه ذلك في مآزق وأزمات مالية ليس له إلى احتمالها من سبيل . وكثيرا ما اضطر لضيق ذات يده أن يتسّم أعلى المقاعد في دور التمثيل ، حتى لا يُحرّم شهود ما هو معروض من المسرحيات ، فإذا رجع إلى داره بعد المشاهدة والتفرّج ، ومضى في حجرته يختلج ثيابه ، رأيته قد وقف تجاه المرأة يتفحص قسّات وجهه ، ثم انطلق يحاكي مشهدا من تلك المشاهد التي ملأت عليه سمعه ، وخلبت لبّه !

وقد يغفلُ عن وقته المتأخّر من الليل ، فيتصايح على الصوت ، ويأتى بحركات تمثيلية ثائرة ، فلا يعتم أن يسمع طرّفاً شديداً على الباب ، وأصواتاً جهيرة من هنا وهناك ، تزجره وتنهيه عن التماذى فيما هو فيه ، إبقاء على سكينته الليل ، وصوّنا لراحة النشّوأم . . .

فيثوب إلى رشده ، وينتبه إلى أنه ليس على منصة المسرح ، وإنما هو في عُنقر داره ، بين حوائط حجرته ، قريبٌ من سريره ،

فلا يملك إلا أن يتسلل مستخفيا تحت لحافه ، مطلقا شيخه الحاد ،
موهما طرأق الباب أنه فريسة كابوس مزعج وحلم مثير !
وعلى مرّ الأيام ، عرف طريقه إلى « قهوة الفن » ، مُلتقى
المولعين من الناشئة بالتمثيل وما إليه ، فما أسرع أن اختلط بهم ،
واندس في مجالسهم ، يشبع نهمه إلى الحديث والمناقشة والنقد ، في
ذلك الجوّ الصاخب الذي يتسع لكل ما يقال ، كما يقال !
وصارت « قهوة الفن » مثابته الحبيبة إلى نفسه ، يستمرى
الحياة فيها إذا حضر ، ويهفو إليها إذا غاب .

وكان حين يقصد مكان عمله ، في النهار ، يحس التراخي
والفتور . . . وطالما أغفل الأوراق تَسْبَح على مكتبه ، ويموج
بعضها في بعض ، وانطلق هو يسبح في آفاق أخرى ، آفاق المسرح
الشائق بأخيلته ومباهجه وأمجاده .

وانتبه مرة إلى أن أقلام الرصاص التي كانت تزحم مكتبه لم
يبق منها قلم يصلح للكتابة ، فقد جعل يقرض أطرانها في أوقات
أحلامه ، لا يعي ما يفعل ، حتى أحالها أنقاضا متآكلة !
وشدّ ما كان يحرص على أن يدسّ المسرحيات بين أوراق
عمله ، وينسكني عليها يقرؤها في جدّ وشغف ، موهما رفاقه أنه
منصرف إلى إنجاز ما بين يديه من الأوراق .

وأقبل مرة على مكان عمله ، فראה أن موظفا آخر قد حل
محلّه في مكتبه ، فراح يتبيّن جليّة الأمر ، فبرز له الرئيس يُعلمه
أن الشركة ضاقت ذرعا بأقلامه المتآكلة ، وبتملك المسرحيات التي
يخفيها بين الأوراق !

فخرج كاسف البال ، يفكّر فيما نأبته ، لا يدري إلى أي مصير
يُساق ؟

ولكنه لم يكدّ يتقدم بضع خطوات في الشارع ، حتى أحس
بأن الدنيا قد أشرقت لعينيه ، وأن الآفاق قد انفسحت أمامه ،
وكأنما قد انزاح عن كتفيه عبء فادح . . . فانبرى يقطع الطريق
بخطا ثوابت ، وهو يتلفّت يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، مفترّ الشجر ، يهيم
بقوله :

كان ما كان ، ورزقي على الله !

وشعر بشيء يتحرك في جيب سترته الأعلى ، فإذا قلمه
الرصاص يتطلع إليه مدهوشا خنيقا ، وكأنه يأخذ عليه ذلك المرح
الطاريء في موقف إشفاق وتحسّر . فاجتذب القلم من جيبه ، فإذا
هو أحد تلك الأقلام المتآكلة المعضوضّة ، فأمسك به وقتا ينظر
إليه في سخرية وتهكم ، والتفت في وقفته صَوْبَ دار الشركة ،
وقذف بالقلم نحوها في مقت وازدراء . . . ولعل القلم قد أصاب

المرمى ، فرق إلى الحجرة عائداً إلى مكانه من المكتب ، ليُسَلِّمَ
زمامه إلى من هو أحق به !

توالت الأيام على الشاب متنقلاً بين «قهوة الفن» وحجرة
بيته ، فهو في القهوة يلتقي رفاقه ، ويعبّ من أحاديثهم ، وهناك
في الحجرة يطبّع على مرآته مشاهد التمثيل التي تَعِجُّ في رأسه .
وما يزال يفعل ، حتى يثور به الجيران ، فيلوذ بالفراش ، ملقياً
تَبِيعَةً إقلاق الراحة على ذلك الكابوس المخيف الذي لا يَدَّ له في
جَلْبِبه ، ولا قدرة له على دفعه !

قضى الشاب فترة يحيا حياة العُطلة والطلاقة ، وكلها تقدمت به
الأيام ألفي جيبه يتداعى ، وأحس على الرغم منه قلقاً يساوره ،
وكان هاتفاً يصيح به :

إلى أين ؟

ولسكن الشاب لا يلبث أن يستعيد طمأنينته ، ويمدّها بتلك
الحياة وذلك البشر اللذين يكمنان في طوايا نفسه ، فيردّد قوله :
فرج الله قريب !

ويوما وجد نفسه قد احترف التمثيل في إحدى الفرق ، فراح
يعمل في همة ومضاء ، وأخذ يتولى أدوار المأسى والفواجع ،
ولعله أبى أن يقوم بتمثيل أدوار المهازل والأفكاه ، ترفعا بنفسه
عن التبدل إلى مواقف لا تليق بممثل خليق بالاحترام !

وعلى الرغم مما بذل ممثلنا الشاب من جهد ومثابرة واهتمام ، فقد
أَخْلَفَهُ التوفيق ، ولم يَلْقَ النِّظَارَةَ بكبير التفات ، وزاد من
كربته أنه أحس الهمز واللمز يَبْرُزُ حوله ، وأعين الرؤساء ترميه
بالنظر الشَّزْر .

وحل يوم خرج فيه الشاب من تلك الفرقة ، وقد أُلْقِيَ إليه
أجره ، مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود !

وانصرف الشاب كاسف البال ، مهموم الفؤاد ، ولكنه ما عثم
أن التفت إلى المسرح يودعه بنظرة لوم وعتاب ، وهو يهمهم :
أَنْسَكِرْتَ اليوم قدرى . لا عَلى . أرض الله واسعة !
ثم رنَّتْ ضحكته ، وأسلم ساقيه للطريق .
عاود وَكْرَهُ فى « قهوة الفن » ، وطال تعطله ، وكلما حَزَبَهُ
أمره ، واحلوا لِسكت الدنيا أمام عينيه ، فزَع إلى كوا من المرح
فى أعماق نفسه ، يغالب بها الضيق والبأساء !
هذه « قهوة الفن » تهىء له متعة النفس وأنس الحديث ، ولكنها
لا تُسَمِّن ولا تغنى من جوع . . .

وطاف برأسه طائف يغريه بأن يعود إلى حيث يستغفر قلبه
الرصاص المعضوض ، ويقسم له على أن يكرم صحبته ، وأن يحميه
من عبث أسنانه . . . ولكن منظر هذا القلم الجامد العَبْسُوس

كان ينفّر من رأس الشاب فكرة العود إلى الدفتر والحساب ..
و ذات مساء كان يجلس في « قهوة الفن » متخاذاً الأوصال ،
يقيم في أخيلة فساح ، وهو يحاول أن يستبقى عُقْبَ اللفافة
بين أنامله ما وسعه أن يستبقيه ، فسمع صوتاً يحويه ، فالتفت
صَوْبَ الصوت ، فرأى صديقاً لم يره منذ فترة ، ومرت لحظات
عامرة بألوان الحفاوة والتهلل ، ثم أقبل الصديق الزائر على صديقه
يتفحصه ويتفرس في ملاحظه ، ثم قال :

كم قرشنا في جيبك الآن ؟

فَدَهِلَ الشاب بما سمع ، ولكنه ابتسم لصديقه قائلاً :

أترأى اخترتني كهدءٍ لمشروع اقتراض ؟

فلاطف الصديق كتف الشاب ، وهو يقول :

ما كان ليخطر ببال أحد أن يطلب منك شيئاً ... إن الإفلاس

ليتلاً على محيّاك !

- فِيمَ سؤَالُكَ إذن عما يحتويه جيبى ؟

- ليطمئن قلبي !

- ماذا تريد منى ؟

- ألا يهفو فؤادك إلى أن تكسب الليلة « ريالاً » ؟

- من يزهد في « ريال » ؟

— إذن هيّا بنا . . . عدّني أن تحقق ما أرغب إليك فيه !
— لك ما تشاء !

في هذه الأيام كانت « القاهرة » قد أضافت دَعيّا من أدياء العلم ، ومُشعوذا من مشعوذة الفن ، يعرض على الجمهور في أحد المسارح المعروفة ضروبا من التنويم المغنطيسي والكشف عن سراير النفوس . . . وكان من خفايا البرنامج أن يدّس هذا الرجل بعض أعوانه بين مقاعد النظارة ليعوّل عليهم في الاستجابة له والتأثر به أثناء قيامه بالشعوذة والتمويه . . . وكان يرسل من يتصيّد له هؤلاء الأعوان من القهوةات وأندية الليل ، فشامت العناية الإلهية أن يكون « نجيب ربحانة » في هذه الليلة كبش الفداء !
وتلقى الشاب من المشعوذ تعليماته ، وانحسر بين المتفرجين كأنه واحد منهم . . . وكان البرّ ناجح أن يتقدم الشاب يعرض نفسه على المشعوذ ليُجرى عليه تجاربه ، فاعتلى منصة المسرح أمام جمهور زاخر متطلع إلى ما يكون ، وطفق المشعوذ يُجرى عليه إيهامات التنويم ، فقام الشاب بدوره المتفق عليه في أسلوب طريف وحرركات متقنة أثارت إعجاب الجمهور ، وأرادته على الضحك والمزاح . وما لبث النظارة أن احتدّ تصفيقهم ، ونسّوا أنهم يتطلعون إلى واحد من المتفرجين ، لا إلى ممثل يقوم بدور ينتزع الضحكات

صدر الشاب عن المسرح يفكر في شأنه ، وما مر به الساعة
من أحداث ...

القد نهض بتمثيل دوره ، لم يبذل عناء ، ولم يتصنع موقفاً ،
وإنما ترك نفسه على سجيّتها في غير تكلف ولا تعمّل ، فكان
ماشاهده من توفيق لم يظفر به من قبل وهو يبذل قصارى الجهد
أثناء تمثيله أدوار المآسى والفواجع !

فَقَرَّ في ذهن الشاب أن أقوى دِعام النجاح في التمثيل هو
الارتكاز على الطبع ، ومجانبة التصنع ، وتوخي الصدق في الأداء ...
وفطن إلى حقيقة عزَّبت عن باله ، فيما مضى من أيامه ، تلك
هي أن له موهبه في أداء الأدوار التي تقوم عليها المهازل والأفاكيه ،
ففي مزاجه الرُّوحى استجابة لهذا اللون من الفن التمثيلي الجميل .

ولطالما كانت جسام الحقائق رهنَ ملابسات الحياة وسوانح
الأحداث ، لا تتكشف قسراً بالقصد والالتماس ، قَدَّر ما تتكشف
اتفاقاً واعتباطاً في تجرّى الشئون !

واعتماد الشاب « قهوة الفن » يقضى سهراته فيها وهو يفكر
في جديد كَشَفَ فيه عن خفايا موهبته ، وعما يتطلبه التمثيل الحق من
التزام الصدق في الأداء ، والحذر من تزوير المواقف والانفعالات .
وماهى إلا أيام حتى دُعِيَ إلى المشاركة في التمثيل عضواً في

فرقة جَوَّالَة ، فاشترط أول ما اشترط أن يُبَاعَدَ بينه وبين
مواقف الجد وأدوار المآسى والفواجع . فنزلت الفرقة عند شرطه ،
وولت إليه ما رغب فيه من هزلي الأدوار ، فأصاب فيها موفور
النجاح ، وقرَّ في ذهنه أنه لم يُخلق إلا للاضطلاع بهذه المواقف
ذات الطابع الفكاهي التي تثير حولها زوبعة من التضاحك .

وعجب أول الأمر من أن هذه المواقف على بساطتها ونزولها
في المحل الثاني هزمت أمامها مواقف البطولة الحافلة بالشئون
الخطيرة والأقدار الحاسمة ، تلك المواقف التي تدوى فيها أصدا
الصراخ والضجيج ، وتنهمر حولها شآبيب الدموع . . .

ولقى الشاب من رفاقه في الفرقة غير ما كان يتوقع ، فقد
تنكروا له ، وازوروا عنه . ولم يلبث أن تعالى حوله خفيج
الدسائس والأضغان .

ويوما وجد الشاب نفسه قد أُلْقِيَ إليه أجره آخر السهرة ،
مشفوعا بالرجاء إليه ألا يعود . . .

فأدبر عن الفرقة ، تتخيل على فمه ابتسامته الفلسفية الخالدة
والتقمته «قهوة الفن» يجلس فيها جلسته المعهودة ، ملقيا ظهره
إلى الكرسي في غير اكتراث ، محدقا في السماء يستسكنه في أبراجها
خوافي الغيب ، ويتعجب من تصارييف القدر وطبائع البشر ، مناجيا
نفسه بقوله :

أَخْرَجَنِي الْإِخْفَاقَ مِنَ الْفِرْقَةِ الْأُولَى ، وَأَخْرَجَنِي النِّجَاحَ مِنَ
الْفِرْقَةِ الْآخَرَى ، فَالْإِخْفَاقُ وَالنِّجَاحُ سَيِّئَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْحَقِيقَةِ ،
وَهَآنَذَا أَصِيرُ مِنْهُمَا إِلَى مَعْبُودَةٍ خَاوِيَةٍ !

وَلَيْلَةٌ بَيْنَمَا كَانَ غَرِيقَ هَذِهِ الْعِبَابِ مِنَ التَّفَكِيرِ ، أَحَسَّ
قُدُومَ رَفِيقِهِ «عَزِيزٍ عِيدٍ» . . .

دَخَلَ بِقَامَتِهِ الْقَمِيئَةَ ، وَعُودُهُ الضَّامِرُ ، تَسْوِقُهُ خَطَاةَ الشَّارِدَةِ ،
وَهُوَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ لِفَتَاتِهِ الذَّاهِلَةِ ، وَعَلَى صَلَاحَتِهِ اللَّامِعَةِ تَنْعَكُسُ
الْأَضْوَاءُ . . .

فَأَقْبَلَ عَلَى صَدِيقِهِ الشَّابِّ بِحَبِيئِهِ تَحِيَّتِهِ الْحَامِلَةَ ، ثُمَّ اتَّخَذَ مَقْعَدَهُ
عَنْ كَثَبٍ مِنْهُ ، وَمَالَ بَئِثَ أَنْ قَالَ كَأَنَّهُ يَحْدُثُ نَفْسَهُ ، دُونَ أَنْ يُوَاجِهَ
الشَّابَّ بِقَوْلِهِ :

فِيمَ تَفَكِيرِكَ ؟

فَأَجَابَ الشَّابُّ ، وَنَظَرَهُ عَالِقَ بِأَبْرَاجِ السَّمَاءِ :

أَفْكَرْتُ فِي ذَلِكَ النِّحْسِ اللَّجْجُوجِ الَّذِي يَتَعَشَّقُنِي لَوَجْهِ اللَّهِ !
فَهَضَّ «عَزِيزٌ» يَذْرَعُ أَدِيمَ الْقَهْوَةِ بِخَطَاةِ الْمَتْرَهَلَةِ ، وَيَدَاهُ
مَعْقُودَتَانِ إِلَى ظَهْرِهِ ، وَظِلُّ وَقْتَا فِي جَيْثَةٍ وَذُهُوبٍ ، وَإِذَا بِهِ يَقِفُ
أَمَامَ الشَّابِّ يَحْدِقُ فِيهِ ، ثُمَّ صَاحَ :

مَا اسْمُكَ ؟

ففغّر «نجيب» فاه من عجب، وقال له متضاحكا :

أَحْسَبْتُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ اسْمًا جَدِيدًا ؟ !

— أَجِبْنِي فِي غَيْرِ مُجَادَلَةٍ .

— اسْمِي «نجيب» .

— أَكْمَلِ اسْمَكَ ...

— «نجيب ريحانة» .

فضرب «عزيز» بيده كتف الشاب ضربة أزعجته، وقال :

تلك هي المسألة كما يقول «شكسبير» .. إن لي في النحس
والسعد رأيا لا يخيب، وأنا زعيم لك بأن في الأسماء أسراراً
كطوالع الأفلاك ...

— لا أدري إلى أين تذهب بي وبك فلسفتك العرجاء !

وانطلق الشاب يقهقهه، فبدأ «عزيز» في وقفة جدّ واهتمام،

وقال :

الموقف لا يحتمل هزلك الرخيص ... قولْ فَصِّلْ ... إن
أردت النجاح فغيّر اسمك ... لا أقصد تغيير اسمك كله، ولكن
بعض التعديل ... وبعبارة أخرى : يجب أن نخرج اسمك لإخراجاً
جديداً ... لقد اخترت لك اسم «الريحاني» بدلا من «ريحانة» .
في كلمة «الريحاني» رفعة وجدة وفنّ ...

فصاح «نجيب» :

لقد أَنبَتُكَ عني في تغيير اسمي ، فافعل به ما بدا لك . . .

— حسناً . . . استقبل منذ اليوم بواكير سعدك !

وأدار «عزيز» ، أحد المقاعد ، وجلس عليه ، واضعاً ذراعيه

على ظهر المقعد أمامه ، وقال :

علينا أن نساير الزمن يا صديق ... الاسم الفني ذوالرزين اللطيف

يجب أن يحل محل الاسم العتيق الذي سحب عليه الزمن ذيله ،

واندفع يلقي على صديقه محاضرة في فلسفة الأسماء ، وصلتها

بالفن ، وما لهذا كله من حظوظ في السعود والنحوس !

أصغى «نجيب» ، لهذه المحاضرة ، وانتهى به الأمر إلى التثاؤب

والتعطى ، وخشى أن يسقط رأسه تحت وطأة النعاس ، فبذل ما بقي

من جهده في قوله :

ألا تخبرني ما هو كسبي من تغيير اسمي ؟

فوقف «عزيز» ، منتفخ الوقفة ، وقال :

أول الغيث أني مُلِحْتُكَ بفرقتي التي أعمل على تأليفها . . .

فطار النوم من جفني «نجيب» ، وأقبل على صديقه يسأله في

شأن تلك الفرقة المنشودة ، وما يُعِدّه من بَرّ ناجمها الفني في

عالم التمثيل .

ألف «عزیز»، فرقة التمثيلية الهزلية الجديدة، فسطع فيها
كوكبان: «روزالي يوسف»، و«نجيب الريحاني».

وكانت الروايات التي تعرض على المسرح مهازل مترجمة من
نوع «الفودفيل»، فاجتذبت الفرقة جمهور النظارة على اختلاف
طبقاته، وأصاب بآدى الأمر نجاحا كاد يخمل الفرق الجديدة
الوطيدة.

ولسكن ثمة عامل دفين وقف تيار هذا النجاح، ولم يكن
ذلك العامل وليد منافسة أو مناوأة من العداوة والحساد، وإنما
كان مرجعه إلى جرثومة النحس التي اتخذت من «عزیز» مرآة خصبها
تنمو فيه وتترعرع... ولقد كان «عزیز» يطارد هذه الجرثومة
في نفوس رفاقه، بسيد أنه كان ينسى نفسه، ومن ثم لقيت الجرثومة
في تلك النفس ملاذها الأمين!

وحان الوقت الذي ينفرط فيه عقد الفرقة، فألقى «نجيب»
نفسه يتبوأ عرشه العتيق في «قهوة الفن»، يسرح بصره في الفضاء
العريض، وينفذ بأنظاره بين أبراج الفلك، متصفحا ذكريات
لياليه في فرقة «عزیز» وما تهيأ له فيها من تجلية وانتصار.

وعلى الرغم من أنه كان يقضى أيام تعطل وفراغ، فقد كان
مؤمناً بما بشره به «عزیز» حين أراده على تغيير اسمه، إذ قال له:

استقبل منذ اليوم بواكير سعدك ...

كانت مصر ، لهذا العهد ، تخوض محنتها الكبرى في الحرب العالمية الأولى ، تعاني أزمات نفسية صعبة من الحماية الإنجليزية وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عُرْفِي وامتياز للسكرامة الوطنية وحقوق البلاد ...

وكان المسرح المصري في أغلب الأمر بِمَعزِل عن الاستجابة لما يموج في الأمة من تأثر وانفعال ، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجِدِّ والتزمت والوقار ... وجل ما يعرض من الروايات أجنبي الروح من نتاج الترجمة ، ليس فيه ما يتصل بأهواء الناس ، أو يسرى عنهم في محنتهم النكراء .

فصدف الناس عن المسرح الجِدِّي ، وتركوه قاعاً صَغَصَفاً يعانى الركود والكساد !

وهنا رأينا « الريحاني » يشق ميداناً جديداً دفعته إليه يد القَدَر ، أو قُلْ بصيرته النسيئة التي فطنت إلى ما يعتلج في نفسية الجمهور من مطالب ومنازع ، فظهر في منظر مصري على أحد مسارح الاستعراض ... وكان ذلك المنظر ساذجاً فكيفها قوامه بعض الشخصيات المصرية الصميمة ، يحتشد فيه خليط من أغان شرقية وغير شرقية ... وابتكر « الريحاني » لنفسه تلك

الشخصية الطريفة، شخصية «كشكش بك»، العمدة السادر الطروب،
فما لبثَ هذا المنظر أن أخذ بألباب النظارة، وانتزع منهم
«عصى الإعجاب»، وكان في ذلك ما أغرى «الريحاني» وصاحب
مسرح الاستعراض بالتوسع في المنظر، والتفنن فيه، وتعشده
بالوان التجديد المسرح، وتغذيته بالأغاني الشعبية، والمشاهد
الراقصة، حتى طغى المنظر على المسرح كله، فأصبح رواية مستقلة تنفرد
بالمسرح بطلها «كشكش بك»، وقوامها الفكاهة والغناء والرقص.

وأحسبنا أن نواة الملهة المصرية الصميعة قد أخذت تتخلق.
راع الجمهور أول ماراعه أن يشهد مواقف شعبية خالصة،
وشخصيات محلية واضحة، منتزعة من صميم البيئة المصرية بلهجتها
وعاداتها وما لها من طابع مخصوص في معالجة الحياة ومعاناة العيش.
واستطاع «الريحاني» ببراعته الخلافة أن يجعل من «كشكش بك»
شخصاً حياً يفرّض وجوده في محيط الناس، فيألفونه ويستجيبون
له، ويتابعون حياته وما فيها من مغامرات طريفة تُهْدِي إلى
النفوس ضروباً من المتعة والسلاوى!

ولعل استجابة الجمهور «لكشكشيات الريحاني»، ترجع إلى أن
الناس كانوا وهم يشهدون «كشكش بك»، يحسون أنهم يحيون حياته
المسرحية الطروب، ويتنفسون في جوه الطليق، فيجدون في ذلك

بعض التسمية والخلص مما يَجْزِيهِمْ على صدورهم من أثقال الضوابط
والأزمات والاضطهادات.

وكان نجاح « الريحاني » حافزاً لغيره من رجال التمثيل على أن
يَقْفُوا أثره ويحاكوه في ذلك اللون الطليّ، ولسكنهم لم يوفّقوا
توفيقه، ولم يستطيعوا متابعة السير كما استطاع. وإن كانت تلك
المحاولات قد نهت الأذهان إلى « الملهة » المصرية والعمل على
إقامة صرحها في ميدان التمثيل...

وعرف « الريحاني » أن « كشكش بك » لا يمكن أن يكون
خالداً، فما ظفّر بالخلود كائن حيّ، فإن لم يتطور أو يتجدد حلت
به الشيخوخة وأدركه البلى... ومن ثمّ رأينا « الريحاني » يسير
الزمن رويداً في مرونة وطواعية وتبصر، وإذا هو يتخفف
من مشاهد الاستعراض الغنائية الراقصة، مقتحماً ميدان الملهة
بعناصرها المتماسكة.

وها هو ذا اليوم تنهى إليه بحق إمارة الملهة في الشرق
العربي غير منازعاً

ليس من دقة القول أن ندعى أن « الريحاني » بلغ الغاية التي
إليها يتشوّف طلاب الفن الرفيع في هذا اللون من المسرحيات
المصرية الصميّة، ولسكنه يمضي في الطريق موفوراً الجهد، ووفقاً

الخطو... يقدم إلى جمهوره المولع بفنه لو نامن الملهاة المصرية حافلا
بالنسلية والإيناس، نابضا بالحياة في الأحداث والأشخاص،
عامراً بالنقذات اللاذعة للمجتمع والناس.

ولا ننسى أن موضوعات رواياته التي يكتبها هو وشريكه
الأستاذ «بديع خيرى» مقتبسة من أصول أجنبية، غير أن
طريقة «الريحاني» في الاقتباس والإخراج خليقة بالحمد والإطراء.
فهو ينتزع الموضوع الأجنبي، ويلقى به في بوتقة فنّه
الخاص، ثم يصهره، ويصبه في قالب جديد، صميم في مصريته،
صادق في تعبيره...

فالاقتباس عنده نحو من الاستلهاام والاستيحاء، وقليل ما نحس
بأن ثمة اتصالا بين موضوع رواية «الريحاني» والموضوع الأصيل
الذي كان مورداً للاقتباس.

ولا ريب أن تمصيره أقرب إلى التأليف منه إلى المحاكاة والتقليد.
استهل «الريحاني» عمله الفني مصريا شعبيا غاليا في شعبيته،
وأفضى به الأمر في الموضوع والإخراج والتمثيل إلى مرتبة يأنس
بها الخاصة، ولا يرونها بمنأى عن مستواهم الفكري...
أما تأديته لأدواره بوصفه ممثلا، فتلك هي بيت القصيد من
فن «الريحاني» الظريف!

إنه إنساني في أدائه للمواقف ، ومجاهدته للملابسات ، فتحس
بأنه قطعة حية منتزعة من الواقع المشهود .

يسارك بعد خروجه من المسرح ، كما عاش معك أثناء وجودك
فيه ، فليس هو تمثالا خـزفياً يتحرك على المسرح ، بل وُلد
مُدار ، لا يلبث أن يسقط مُحطاماً حين ينزل الستار !

وربما كان توفيق « الريحاني » في تأديته لأدواره يرجع إلى
الملاءمة العجيبة بين شخصيته الواقعية وتلك الشخصيات التي يمثلها
على منصة المسرح ، ولا يعيا « الريحاني » بأن يوفر لفنه تلك الملاءمة ،
فهو يصوغ مسرحيته بنفسه ، ويشاطر في تأليفها وحكمها وتصريف
مواقفها وتدبج حوارها طوعاً ونزعةً ووفقَ هواه .

وفي حسبان أن نجاح الممثل في أداء أدواره يرتكن في
الغالب من الأمر إلى أحد عاملين :

الأول : الملاءمة بين الشخصية الطبيعية له والشخصية الوهمية

التي يؤديها .

والعامل الآخر أن يكون الممثل في واقع الحياة عاجزاً عن
تحقيق شخصية معينة ، توّاقاً إلى أن يكونها ، فإذا ما راح يمثلها
وهنأ على المسرح ، برع في تمثيلها ، تنفيساً عن حرمانه ، وإرواء لغليله ،
فبكأنه يحقق في عالم الخيال ما تصبو إليه نفسه في عالم الواقع المحسوس .

وقد ارتكن «الريحاني» في توفيقه إلى العامل الأول ، وهو
عامل الملاممة ...

ليس ثَمَّةَ كبير فرق بين «الريحاني» ، الأريحيّ الوَهَّابِ
المِثْلَافِ ، ذى النزعة المَرِحَةِ الضاحكة ، وبين «كشكش بك»
فيما تجلّى لنا على المسرح من مغامراته اللاهية .

«للريحاني» ، فى الحياة فلسفة تستند إلى دعامتين :

الأولى :

أَنْفِقْ ما فى الجيب ، يَا تَكَ ما فى الغيب .

والأخرى :

تَغَدِّ الدنيا قبل أن تتعشاك .

أطال الله غَدَاهُ !

إلى "موباسان"

صديق الكبير :

هذه رسالة يخطها إليك امرؤٌ مُقِرٌّ لك بالجميل ، معترف
بحسن الصنيع ، حامدٌ لك طيبَ الصحبة منذ ثلاثين عاما أو تزيد.
كنت أول من طالعني في فتوة السن ، وعنفوان الصبا . حين
انطلقتُ أقرأ ما يقع لي من أدب الغرب ، فأنا اليوم أفصحُ لك
في هذه الأوراق عن سر علاقتي بك ، وأبسطُ ما تسكشَف لي
من بديع فنك .

ما أنسَ لا أنسَ باكورة لقائنا إياك في مكتبة هنالك
«بالإسكندرية» في يوم من فصل الصيف .

كان من عادتي أن أقضى الضحوات في مشرب ساذج ينظر
إلى البحر ، أنعم بجلسات رخيّة هنيئة في رفقة طائفة من
الصحف ، وأنا أستمع في الحين بعد الحين إلى ثرثرتها في

شكول من أنباء الحرب العظمى وأطراف من شئون الناس .
وساعة ضقت ذراعاً بثثرة رفقتي من الصحف ، وهفت
نفسى إلى أن أنجو بها من جمعة الطعان وفضول الأخبار إلى أفق
أصنى وأنقى وأرحب ، إلى أفق الأدب الرفيع .

وكان لا بد لي أن أتخير رائداً يخط لي الطريق ، ويضيء لي
جوانبه ، رائداً يحسن التودد إلى نفسى بحديثه ، فأحسن
الإصغاء إليه ، ولا أمل الوعى لما يقول .

وبغته نهضت من المشرب أطلب إحدى المكتبات ،
وسرعان ما وجدتني بين تلال تلك المدينة العجيبة التي تتألف
طباقها من أذهان وعقول ... إنها مدينة تزخر بحشود
من المواهب والكفايات والجهود ، وإن أهلها ليبادلونك
التساجى بحديث صامت خفاق ، ينفذ من الشغاف حتى
يبلغ أعماق السرائر

شبيهة تلك المدينة بمحراب قدسي تنتقش في جوانبه صور
حية من قرائح البشر ، ومشاهد خالدة من تاريخ الفكر عند
الإنسان .

وبينما أنا مأخوذ أقلب النظر في ذلك المحراب ، وأتصفح

ما حواه من صور ومشاهد ، أحسستُ بك أيها الصديق الكريم
تداني مني ، فتضع يدك ملاطفاً على كتفي ، كأنك قد فطنت إلى
حيرتي ، فأسرعتَ تأخذ بيدي ، لتهديني الطريق .

رأيتك تدنو قوياً البنية ، صلب الخطا ، وعينك يشيع
منهما ضياء ثاقب لا تمتنع عليه الحجب .

رأيتك تتخايل على فك بسمّة يالها من بسمّة ، هي بسمّة
الشمس ينفذ رفيفها من بين الغمام ، غمام التشاوم والاسى
والاستيحاش .

وما إن تطارحنما التحايا ، حتى توافق رُوحانا ، فضينا
في الطريق جنباً إلى جنب ، وإذا نحن نقصد المشرّب المعهود ،
ولا يكاد يستقرُّ بنا المجلس حتى تبدأ حديثك ، فأوليك سمعاً
مشوقاً .

إنك لتحدث حديثاً عجيباً ، يقطر عذوبة وصفاء ، وإنك
لتتخذ أسلوباً لا يروّع بما فيه من تنميق العبارة وإحكام الصوغ ،
ولنما يروّع بما يسرى فيه من حيوبة وحميّة كأنهما تيار
كهربي !

وظفقت ترسل القول دفّاقاً كخوارب الموج ، فكدتُ

أرميك بالثرثرة. ولكن لله أنت من ثرثار غير مشغوم ، تبسط
العواطف مختلفة ألوانها ، وترسمُ الصور أنواعا وأفانين ، وتجلو
الشخوص طبقات شتى وأوضاعا متباينة ، ولا تألو جهدا في
البسط والرسم والتجلية ، على حين تطلق الضحكات رنانة سادرة ،
فإذا أنا أرى سوق الحياة ومعتك العيش سطورا وكلبات كلها
صدق وإخلاص !

وتوالت جلساتنا الصافية في ذلك المَشْرَب ، تطول يوما
بعد يوم ، فتوثقت بيننا الصلة ، واستحكم التعارف ، وأصبح لتلك
الصيفة التي جمعتني بك ذكرى كريمة ما برحت تلمع في خاطري
على الرغم من كثر السنين .

وأذكر أنني ملأتُ عليك مرةً أسألك :
« أي الأشياء أكثر شُغلا لك في الحياة ؟ »
فأجبتني جَهِيرَ الصوت :

« ليس يشغلني ويملك عليّ أقطار نفسي إلا شيء واحد ، هو
حبُّ الحياة ! » .

وأمسكت بكفي تضغطها ، وأنت تطوف ببصرك حوالينك ،
وانبريت متحمسا تقول :

« انظر إلى الحياة ما أجملها . . .
إنه لحبيبٌ إلى كل شيء فيها جل أو حقُر . . .
من إنسانها العملاق إلى النبتة التي لا يكاد ينشق عنها أديم
الأرض . . . »

ثم استويت في مجلسك ، مُلقياً بنظرك في الأفق، وضّاح
الجبين ، تقول :

« أَحِبُّ السماء كحبِّ الطائر لها !
أحبُّ الغابة كحبِّ الذئب الذي يرتع فيها !
أحبُّ الصخرة كحبِّ الوعل الذي يتخذها له ملعباً !
ولقد بعثني حبُّ الحياة على أن أكتسبَ خوافيها ، وأشبهُرَ
أغوارها ، وأقتحم معاقليها الصَّعاب .
ومعنى الحب عندي هو الرغبة العارمة في الامتزاج والفناء فيما
هو محبوب ، ومن ثمَّ استرسلتُ أمتزج بملك الأمواج الزاخرة التي
تضطرب في محيط الحياة ، أعلو على مُتونها تارة ، وتهبط بي إلى
الاعماق أخرى ، لا أضيع بشيء مما يكون ، ولا أنشد الاً استقرار
على حال مما يجري ، فقد فَنَيْتُ في هذه الحركة الدَّهْوبِ
كل الفناء !

غَفَرَ اللهُ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ !

شَدَّ مَا تَشَبَّهْتُ بِهَا ، فَهَبْذَنْبِي بِعِيدَا ،

بَدَأْتُ أَيَّامِي تَلْمِيزَ مَدْرَسَةِ يَسْتَجِيبُ انْزِعَاتِ نَفْسِهِ الطَّامِقَةِ ،

وَلَا يَمْلِكُ عَنْهَا حَجِيدَا ، فَضَاقَتْ الْمَدْرَسَةُ بِقُصُورِي فِي طَرِيقِهَا

الْمَرْسُومِ . . . وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ أَلْفَيْتُنِي طَرِيدَ التَّعْلِيمِ !

وَكُنْتُ فِي الرِّيفِ ، أُرْتَعُ فِيهِ وَأَمْرَحُ . أَحْيَا مَعَ الزُّرَّاعِ ،

أُدْخِلُهُمْ فِي مَنَازِعِهِمْ ، وَأُطَالِعُ رُسُومَهُمْ فِي مَعَايِشِهِمْ ، وَأُجِدُ فِي

ذَلِكَ أَسْأَاسًا وَسَلْوَى ، وَلَسَكُنَ الرِّيفُ ضَاقَ بِي ، إِذْ كُنْتُ أَخْذُ

مِنْهُ لَا أُعْطِيهِ ، فَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ أَلْفَيْتُنِي طَرِيدَ الرِّيفِ !

فَقَضَيْتُ حَقَبَةً مِنْ حَيَاتِي مَوْظَفًا أُحْسِبُ فِي النُّسْكِرَاتِ ،

مَوْظَفًا غَيْرَ نَاشِطٍ الْعَمَلِ ، وَلَا مُجْتَهِدٍ فِيهِ . . . وَلَسَكُنِي عَلَى الرَّغْمِ

مِنْ خَمُولِي وَكُلِّي فِيمَا يُلْقَى إِلَى مَنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْخِدْمَةِ ، كُنْتُ

لَا أَمُرُّ إِلَّا حَتْلَاطَ بِالرَّفَاقِ مِنَ الْمَوْظِفِينَ ، أُنْدَسُّ إِلَى دُخَانِهِمْ ،

وَأَتَعْرِفُ خَصَائِصَهُمْ ، وَأُجِدُ غَايَةَ الْإِتْنَاسِ فِي اسْتِجْلَاءِ مَا يَدُورُ

بَيْنَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ . وَلَسَكُنَ الْوُظَيْفَةُ تَأَبَّتْ أَنْ تَحْتَمِلَ مِنِّي

النَّقِيزَيْنِ مِنَ إِهْمَالٍ وَقُضُولٍ ، فَإِذَا أَنَا طَرِيدُ الْإِسْتِخْدَامِ !

وَمَا إِنْ تَرَكْتُ الْوُظَيْفَةَ حَتَّى وَجَدْتُنِي أَقْتَحِمُ مَعَاقِلَ الْبُرْجُوزِيِّينَ .

فَعَشِيقَتُ حَيَاتِهِمْ ، وَتَذَوَّقْتُ مُتَعَمِّهِمْ ، وَقَارَفْتُ مَعَهُمْ أَخْلَاطَ
الذَّائِدِ وَالْآثَامِ . . . وَكَلِمَا أَوْغَلْتُ فِي الْأَعْوَامِ فِي ذَلِكَ الْمُعْتَرِكِ
ازْدَدْتُ اغْتِرَافًا ، مَا أَرَى وَمَا أَسْمَعُ وَمَا أُحِسُّ ، وَكَانَ ذَلِكَ
يُلْهِيهِ فِي الشَّغْفِ بِالْحَيَاةِ ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْمَرْيَدِ .

أَحْبَبْتُ فِي الْحَيَاةِ مُتَعَمِّهَا أَشْكَالًا وَأَلْوَانًا ، فَأَغْرَقْتُ نَفْسِي
فِي لَجَةِ الْحِسِّ : هَضَبْتُ الْقُدُودَ جُهْدًا مَا أُطِيقُ ، وَاعْتَصَرْتُ
السُّكُوسَ اعْتِصَارَ ظَامِي لَا يَرَوِي لَهُ غَلِيلٌ ، وَفَزَعْتُ إِلَى
الْمُغَيَّبَاتِ أَسْتَكْمِلُ بِهَا وَسَائِلَ التَّحْلِيْقِ فِي آفَاقِ الْخِيَالِ .

بَيْدَ أَنِّي كُنْتُ آتِسُّ مِنَ الْحَيَاةِ إِبَاءً عَلَى ، وَتَمَلُّصًا مِنْ بَيْنِ
يَدَيَّ . وَلَمْ تَكْذِبْنِي الْأَيَّامُ ظَنِّي ، فَإِنِّي لَمْ أَكْذِبْ أَتَجَاوِزُ الْأَرْبَعِينَ
حَتَّى أَنْفَصِمَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ دُنْيَاكُمْ مِنْ أَسْبَابٍ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ أَتَخَذَ
لِي سَكْنًا فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْعَجِيبَةِ ، مَدِينَةِ الْأَوْرَاقِ !

يَا هَلَا مِنْ غَرَائِبٍ وَمَفَارِقَاتٍ ! حَيٍّ لِلْحَيَاةِ هُوَ الَّذِي حَرَمَنِي
دَوَامِ وَصَالِهَا ، وَوَلَعِي بِمُتَعَمِّهَا وَأَطَايِبِهَا هُوَ الَّذِي حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا !
كَلِمَاتٍ هَمَّتْ بِهَا صَدَّتْ ، وَكَلِمَاتٍ مَلَتْ إِلَيْهَا بَعُدَتْ . . . فَلَا بَدْعَ
أَنْ أَحْقِدَ عَلَيْهَا حَقْدًا مَرِيرًا ، حَقْدًا يَخَالِطُ ذَلِكَ الْحُبَّ الْمَكِينِ
كَأَيِّ خَالِطِ السَّمِّ الْمُنْقَعِ رَطْبَ الشَّرَابِ !

وكنيتُ أرى مجتمَعَ الناس تحكمه عادات ومعتقدات عليها
غلائل فاخرة من نسج المخادعة والرياء ، وكأن ذلك المجتمع
سجن مشغل بالسلاسل والأغلال . فتطلعتُ إلى حياة حرية
وطلاقة ، وجرّيتُ في العنان جموحاً أحطم القيود ، لا يصدني
عائق عن الهدف المرموق . . فنَضَوْتُ الأستارَ عن تلك
الغرائز البشرية التي تعمل في السرائر ، وتجعل من الخلق الأعيب
تبعثُ السخريه والإشمئزاز

و ربيعَ المجتمع مما جابهته به من مساوويه ونزواته، فصاح بي :
مكانك أيها السليط !

إلا أن ذلك المجتمع كان في حقيقة أمره يُصْغِي إلى ، ويَهْلِي
على ، وكأنه يستزيدني مما كنتُ ألقى عليه الضوء من خفايا الناس !
ولسكن الحياة الغدور أبتُ على مهلة من العمر . أستوفي
فيها مرادَ نفسي من الكشف والإفصاح ، وإذا بمتع الحياة تسري
في دمي سُمّاً زُعافاً يهدّني ويُشيع في الاضطراب حتى حل
يوم كنتُ أشعر فيه أن علي يُنزَف ، وأنه مُوشِك أن
يَنْضُب . . .

وأظنني ذلك العهد المشؤم ، عهد الجنون ، ثلاث سنين .
قضيتها في وقد عاصفة هوجاء من رمال سود ، فيها أضواء
مروعة ، وأصداء ممدوية . . عاصفة يأخذ حرها بخناق ،
ويسجن أنفاسي ، على حين تنتظمني قشعريرة ثائرة ، كأن
جسدي على وساد من زهرير !

وما تكاد تعاودني سكينه نفسي لحظات ، حتى يتقسمني رعب
وهلع . إنها لحظات صحو ليست أهون عذابا من هبوب تلك
العاصفة الهوجاء . ففي لحظات صحوى كنت أطلع إلى مهراب من
الآلام التي تشحذ لي سنانها ، ولكن أنسى لي ذلك والإعصار
الأسود لي بمرصد ، وإنه لي بعيد عذته لا يستنف
الهجوم ؟ !

تلك حياتي التي عشتها ، قصصت عليك نبأها ، دون أن أتزيد
أو أغلو . . .

ولما بلغت أيها الصديق من حديثك هذا المبالغ ، رأيتك
قد انكفأت تبكي أحر بكاء ، فكان منظر أعجبا يا له من منظر !

أنت الجبار العنيد الذي ظالما أضحكت وأبكيت ،
وأعززت وأذلت ، تبدو متصاعرا أمام صولة الزمن ، كأنك طفل
لا تملك إلا سكّيب الدموع !

ولمحت أوصالك تهتز ، فأقبلت عليك الأطفك وأواسيك ،
فإذا بك تستحيل بين يدي رمادا ، وإذا بهذا الرماد هبّاء في
الهواء ...

ووقفت أرقب ذرات الرماد ، تحملها ريح البحر إلى
الشاطئ المجهول !

إلى "بُزْأَكْ"

أيها الزميل الكريم :
ومن أحقُّ منك بأن يتقبل ندائى إياه ، وأن تستجيب نفسه
الرغبة كاتب على ضفاف النيل ، يحاول أن يتناول بصوته ليبلغ
أفقك الرفيع ؟
من أحقُّ منك أيها الإنسانى الخالد ، الكبير قلبه ، النبيل
شعوره ، الموفور عطفه على البشرية جمعاء ؟
من أحقُّ منك بأن يأخذ بأيدي الكتّاب في أشغال الممالك
والأمصار ، مهما تبعد بهم الشُّقَّة عن مدّك ، وتقعد بهم الهمة
عن غايتك ؟
من أحقُّ منك بأن يدنى إليهم أسباب مودته ، ووشائج عاطفته ،
فيتسامى بهم إلى ذروتك السامقة ، يحوطهم بالبر الأبوى ،
ويدعُ لهم أن يلتمسوا من اسمه نَفْحة المجد والجاه ؟

إني لأدعوك بالزميل ، وما بعثني على هذا الدعاء إلا ذلك
الرباط المقدس الذي يصل بين كاتب وكاتب ، وإن تفاوتت بينهما
الأقدار .

وما كان أخلقتني بأن أدعوك الأخ الأكبر ، أو المواطن
الأعز !

إنك يا صديقي لم تعد فرنسيًا محدودًا بهذه الجنسية وحدها ،
فأنت « مُوَاطِنٌ عالميٌّ » بحق .

لقد ابتغيت العالم كله لك وطنًا ، ولقد اتخذت من البشر أجمعين
مُوَاطِنِينَ ، وهذه نماذجك التي سويتها في دنيا كتبك ليست
إلا صورة مصغرة لدنيانا التي نعيش فيها على اختلاف بقاع
الأرض ، وتباين ألوان الناس .

ما قرأ لك امرؤ إلا استجابت نفسه لما كتبت ، وأحس أعق
إحساس بأنك لست عنه غريبًا . فهو يرى فيك طيفه ، كما يرى
فيك أطياف مُوَاطِنِيهِ ، حيثما كان .

ما قرأ لك امرؤ إلا نبئت بينه وبينك ألفة تصل نفسه
بنفسك ، وكأنه قد لقي بك مترجما أفصح منه لسانًا ، يحلوه
مشاعره أوفى جلاء . . .

أنت إنسان تتنازعك الأوطان والمواطنون .

كل قارىء لك يدعيك لعشيرته وأرضه ، غير عاجز عن تأييد
دعواه بالحجة والبرهان .

وهأنذا شرقي لا أجذك إلا شرقيًا حقًا ... لكأنك على
ضفاف النيل درجت ، وبمائه ارتويت ، ومن ثمره اغتذيت .
لكأنك استنشيت نسيم الشرق الشدي ، ونعيمت بدفء
شمسه الوهاجة ، وحلقت ساجدا في أخیلته الرحاب .
لست بشرقي محصور في عصر بعينه ، ولا في جانب مخصوص
من جوانبه ، ولكنك روح شرقية هائمة تجتأب الحقب ،
وتنتظم الجوانب والأرجاء ...

إني لا تمثلك «شهر يار» آخر لعهد جديد من «ألف ليلة
وليلة» . أتمثلك ذلك السلطان الشرقي الذي أهداه إلينا عالم
الأساطير ، وما برح حتى اليوم يحيا بيننا على عرش الأحلام ..
ظل هذا السلطان يعيش للحب والمجد والطموح ، ويتقلب
في أعطاف الترف والبذخ والنعيم .. يسند أنك أنت «شهر يار»
من طراز أعلى وأنبل ، سلطان أقوى تفسطئنا لشئون رعيته ،
وأخني عليهم قلبا .

كان ، شهر يار ، الأول يقضى كلَّ ليلة على نفس إنسانية بريئة ،
بعد أن يعتصر حياتها . فأما أنت فكنت في كل ليلة تهب الحياة
للناس ضروبا وأفانين !

ولم تكن هباتك من فواضل ماتملك ، وإنما هي هبات تقطعها
من جوهر نفسك ، فكنت تعطى الحياة لهؤلاء الناس من حياتك ،
وتجري الدم في شرايينهم من عروقك ، وتبثهم من رُوحك
قُبسة الروح .

وبينما كان هؤلاء الناس يزدادون نمواً وازدهاراً في الحياة ،
كنت أنت كالزهرة حين تذوي على مهل .

شتان ما بينك وبين ، شهر يار ، السالف ، فشعاره كان
الأثرة والتدمير ، وشعارك هو البناء والفداء .

ثمّة فارق بينك وبينه ، فإن متعته كانت في إصغائه لما تقصّه
عليه ، شهر زاد ، ، وما أروع ما كانت تقصّه عليه من أحداث
خلابة يتفكك بها ويتسلى . أما أنت فلا شأن لك بالإصغاء ، وإنما
دُبك التحدث ، والبشرية كلها ، شهر زاد ، مصغية إليك ،
مسحورة بما تسمع منك .

أمام عيني طيفك ، وأنت في ردائك الأبيض الفضفاض ،

مَنْتَ طِيقُ بَتْلِك السَّاسِلَةُ الذَّهَبِيَّةُ ، نَجُولُ قَدَمِكَ فِي خُفٍّ مَقْصَبٍ ،
 وَقَدْ تَبَوَّاتِ مَقْعَدَكَ الْفَسِيحَ ، بَادِنَ الْجِسْمِ ، ضَخْمِ الْهَامَةِ ،
 يَتَرَسَّلُ شَعْرُكَ الْفَيْنَانُ ، وَعَلَى وَجْهِكَ الْمُطَهَّمُ تَلُوحُ الْوَدَاعَةُ
 وَالسَّمَاحَةُ وَالْبِشْرُ . وَمَنْ لَوْ اَمَعَ نَظْرَاتِكَ تَنْفُثُ سِحْرًا يَهْرَأُ الْعَيْنَ
 وَيَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ . وَعَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَجْلِسِكَ تَنْبَسِطُ مَائِدَةٌ
 حَافِلَةٌ بِالرَّحِيقِ الْفَاخِرِ وَالْفَاكِهَةِ الطَّيْبَةِ ، وَأَنْتَ فِي الْفَيْئَةِ بَعْدَ الْفَيْئَةِ
 تَتَنَاوَلُ مِنْ هَذَا وَمِنْ تِلْكَ مَا لَذَّ وَرَاقَ . مَتَّخِذًا كَيْلَ مَتْعَتِكَ مِنْ
 أَنْفَاسِ تَبِغِ « اللَّاذِقِيَّةِ » يَنْشُرُ سَحَابُهُ حَامِلَةً إِلَيْكَ أَحْلَامَ الشَّرْقِ
 وَأَخِيلَتَهُ ، عَلَى حِينِ تَتَرَشَّفُ مِنْ شَاىِ « الصِّينِ » الذَّكِيِّ ،
 مُضْمَخًا بِعِطْرِ أَبَاطِرَتِهَا الْعِظَامِ !

وَنَكَ إِذْ يَسْتَقِرُّ بِكَ الْمَجْلِسُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، لَتَتَفَتَّقُ
 عِبْقَرِيَّتُكَ ، فَيَنْسَابُ حَدِيثُكَ فَيَاضًا يَسْتَمِعُ إِلَيْهِ الدَّهْرُ ، وَمَا يَطِيبُ
 لَكَ أَنْ تَتَحَدَّثَ إِلَّا إِنْ تَغَشَّاهُ جَوْفُ اللَّيْلِ ، وَشَمِلَتْكَ
 هَدَاهُ ، فَتُظَلُّ أَنْسَاءَ بِسَهْرِكَ وَسَمْرِكَ ، حَتَّى تَنْشَقَّ الْغُبُشَةُ
 عَنْ بَسْمَةِ السَّحَرِ !

حَسْبُكَ كَلِمَةٌ تَرْسُلُهَا ، أَوْ إِشَارَةٌ تَبْدِيهَا ، فَمَا هِيَ إِلَّا طَرَفَةٌ
 عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتُهَا حَتَّى تَقُومَ الْمَدَائِنُ بَيْنَ يَدَيْكَ عَامِرَةً ، وَالنَّاسُ شَتَّى

من عِلْيَةِ وصعاليك يتدافعون في جَنَبَاتِهَا مُخْتَلِفَةً بِهِمُ الْأَحْوَالِ
وَالنَّزَعَاتِ وَالْأَقْدَارِ .

لله أنْت من ساحر ، تستعين على سحرِكَ بِالْمُعِيَةِ خَاطِرِكَ ،
وَحَيَوِيَّةِ ذَهْنِكَ .. فإِذَا كَلَّتْ بِكَ الْقَرِيحَةُ ، وَأَدْرَكَكَ الْإِعْيَاءُ ،
فَزَرِ عَيْنَتَ إِلَى أَقْدَاحِ الْقَهْوَةِ الشَّرْقِيَّةِ تَعَبٌ مِنْهَا عَيْبًا ، وَلَا تَمَلْ
مِنْهَا شَرِبًا ، لِتَوْقِدِهَا مَا نَحْمَدُ مِنْ نَشَاطِكَ وَحِمِيَّتِكَ ، فَلَا تَلْبِثْ أَنْ
تَنْعَمَ مِنْهَا بِنَشْوَةِ وَانْتِعَاشٍ .

عَشْتُ أَيُّهَا الزَّمِيلُ الْكَرِيمُ عَيْشَ « شَهْرِيَّارِ » فِي أَطْوَارِ
حَيَاتِكَ جَمْعَاءَ ، يَهِيْمُ بِكَ الْخَيَالُ فِي كُلِّ وَادٍ ، وَيَسْتَبِدُّ بِكَ دَائِمًا
عَالَمُ الْأَحْلَامِ .

أَلَمْ تَسْكُنْ فِي سِنِّ الْغَرَارَةِ تَسْمُو بِنَفْسِكَ إِلَى صَفُوفِ
الْأَسَاتِذَةِ ، وَتَتَّيَّبُ إِلَى الشَّأْوِ الْأَقْصَى فِي مِيَادِينِ الْفِكْرِ ، فَتَكْتَبُ فِي
دَقَائِقِ الْفَلَسَفَةِ ، وَتَحَاوِلُ أَنْ تَعَالِجَ « مُشْكَلَةَ الْإِرَادَةِ » ، عَلَى حِينِ
كَانَ أَتْرَابُكَ وَقَرَنَاؤُكَ يَتَعَثَّرُونَ فِي إِحْسَانِ قَوَاعِدِ الْإِمْلَاءِ ؟

أَلَمْ تَسْكُنْ قَادِرًا فِي إِبَّانِ فَاقَتِكَ عَلَى أَنْ تُحِيلَ طَعَامَكَ
الْغَثَّ طَعَامًا طَيِّبًا لَا غَثَائَةَ فِيهِ ، وَذَلِكَ بِمَا كُنْتَ تَرْسُمُهُ عَلَى الْمَائِدَةِ
مِنْ صَحَافٍ حَافِلَاتٍ بِمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ ، فَتَكْتَسِبُ الْمَتْعَةَ وَالتَّلَذُّذَ عَلَى

الرغم مما أنت فيه من حرمان ؟

ألم تسكن في مطلع شبابك ، وأنت تتأوى إلى غرفتك الصغرى
في الطبقة العليا من بيت متواضع ، تقامسى زمهرير الليالي الطوال ،
وتعانى ظلمة الوحشة السكتية ، فما هي إلا أن يجوز بك الخيال
إلى عالمك الأهل المأنوس ، تنعم فيه بالدفء والطمأنينة
والأمان ؟ ...

ألم يُتيحْ لك وقد بدأت الدنيا تُقْبِلُ عليك ، أن تملك دارا
فيحاء أعددتها لسكنائك في « سيفر » فأبيت إلا أن تجعلها قصرا
من قصور « ألف ليلة وليلة » ، حالية بالرياش الفاخرة ، أرضها من
المرمر اللؤلؤى ، وجدرانها مؤزرة بالخشب الثمين ، وقد تناثرت
فيها ألواح الفن والجمال . وما كان في مقدورك أن تجعل ذلك كله
حقيقة واقعة ، ومن أين لك المال الطائل يفي بغرضك ؟ فأسعفتك
مخيلاتك الرّحية تحقق لك ما تريد ، فجعلت تخطّ في كل موضع
من قصرك ما تصبو إليه نفسك من أثاث ورياش ، تخطه أسماء
بلا مسميات ، فإذا أنت سعيد بوهملك ، موفور بالتنعم بخيالك ،
والدار أمام عينيك خاوية جرداء !

ألم تتوهم يوما أنك اهتديت إلى « الخانم السحري » ، هبة

الشرق الحالم ، ذلك الذى يمنح صاحبه كل ما يهفو إليه فؤاده وإن
عزَّ مطلبه ، فأردت أن تكشف به خفايا السكنوز فى بطن الأرض ،
وعشت بهذه المُنَى زمنا رغدا ؟

ألم يُطَوِّحْ بك خيالك إلى « جلدِ الأحزان » ، المُرَقَّشِ
بكلمات عربية ، ذلك الذى تمثلته جلدا سحرىا عجيبا ، يكفل لصاحبه
إنجاز مآربه ، بيد أنه كلما حقق مآربا تكش وتقلص ، ونقص
بقدر ذلك عُمرُ من يملكه ، حتى يحين وقت لا يبقى فيه من
« جلدِ الأحزان » ، ومن عمر صاحبه إلا بقية صغيرة ، تأتى عليها
الرغبة الأخيرة ؟

ألم تسكن طَوَالَ عمرك موصول الهوى بتلك الحياة الناعمة ،
حياة الترف والسَّرَف ، تستدّر اللذة والاستمتاع . وبين جنبيك
تكن روح ذلك السلطان الشرقى العتيد « شهربار » فانطلقت تطلب
المال دَعْوَا تلتمس إليه كل سبيل ، وكلما ازدادت كسبا أمعنت
فى الإنفاق إمعانا ؟

لقد أصبت من المال ما هو كثير ، ونعمت من المتع بما هو
غال نفيس ، ولسكن المال لا يكاد يتجمع فى راحتك حتى ينزلق
عنها انزلاق الزئبق ، فلا تجد بُدًّا من الإسراع إلى الدائنين ،

ليعينوك على أمرك بألوان القروض .

شَدَّ مَا هَوَيْتَ الْمَالَ !

وَشَدَّ مَا أَزْرَيْتَ بِهِ !

هوَيْتَهُ لَأنه وسيلتك إلى حياة الرفاهة والنعيم ، وأزْرَيْتَ بِهِ
لَأنك أسْرَفْتَ في بذله غيرَ ضَنِينٍ بِهِ ، ولا حَرِيصٍ عَلَيْهِ ، فَعَشْتَ
مَا عَشْتَ لَا تَجْعَلُ لِلْمَالِ سُلْطَانًا عَلَيْكَ ، وَلَكِنَّكَ تَتَخَذُ الْمَالَ
عَبْدًا تَصْرِفُهُ كَيْفَ تَشَاءُ .

أيها الزميل الكريم :

مَا أُرْوَعُهَا حَيَاةَ قَضِيَّتِهَا أَنْتَ فِي دُنْيَانَا تِلْكَ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
ضَاآلَةِ سِدْيِهَا الْخَمْسِينَ !

وَهَلْ تَقَاسُ حَيَاةَ الْعِبَاقَةِ بِمَا قَضَوْا مِنْ أَعْمَارٍ ؟

رُبَّ سَاعَةٍ خَاطِفَةٍ يَشُقُّ فِيهَا الْعَبْقَرَى مِنْ آفَاقِ الْفِكْرِ
مَا تَقْصُرُ عَنْهُ الْأَجَالُ عَلَى تَرَادُفِ الْأَحْقَابِ !

كَانَتْ حَيَاتُكَ أَعْمَارًا فَوْقَ أَعْمَارٍ ، فِي كُلِّ لَحْظَةٍ تَبْعَثُهَا فِي جَوَانِبِ
السَّكُونِ ، وَفِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا عَلَى أَدِيمِ الْأَرْضِ ، تَتَفَتَّحُ لَكَ كُنُوزُ
مِنْ أَعْمَاقِ الْحَيَاةِ ، زَاخِرَةٌ بِأَسْرَارِ النُّفُوسِ وَتَجَارِبِ النَّاسِ ، وَإِنَّهَا
لَكُنُوزٌ تَتَخَطَّأُهَا الْأَعْيُنُ ، وَهِيَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا ، لَا تُقِيمُ لَهَا وَزْنَ .

حقاً لم يكن عمرك في حساب الزمن طويلاً ، ولكن هذه
الروائع المائة التي سطرَ تهاير اعتك كانت سجلاً وافياً للبشرية
يُدَوِّن أحداثها ويؤرخ أطوارها في عهود ممدودة يقطع الزمن
في حسابها طوالاً من الأعمار .

ولكن ثمة كتاب لم يجز بتسطيره قلبك ، ذلك هو قصة
حياتك ، وإنه لقصتك الكبرى على وفرة ما أخرجت من قصص ،
وكيف لا تكون القصة الكبرى وأنت بطلها الفذ ؟

إنك لتجمع في شخصيتك الواحدة مئات الأبطال الذين
احتوتهم وملهاتك ، الإنسانية الخالدة .

في شخصيتك الواحدة تراحم حياة أولئك الأبطال ، بما
اعتلج فيها من نزعات ونزوات ، وبما توارد عليها من أفكار
وأحداث ، فلقد انفسحت شخصيتك لذلك كله على ما فيه من
تناقض واختلاف .

كنت أنت كل هؤلاء ، أفردتهم من دخيلة نفسك ، ونفخت
في كل منهم نسمة الحياة ، ودفعت بهم في مسالك الأرض ،
يستمدون منك العزم والفهم ، وتجري أقدارهم بتدبير منك وتقدير .
لهم بضعة منك . وإن مردهم إليك ، يتفانون فيك فناء

الصوفي في معبوده ، فما نورهم إلا قبسة من نورك الشامل العظيم !
ولقد كان عجباً ما رأيناه منك أيها المعلم غيرته ...

لقد علمت أبطالك حقائق الحياة ، وبصيرة بهم بالتقلب في
مذاهب العيش ، ووقفت بهم على كل شيء مما يلابسهم من حب
أو كره ، ومن إقدام أو إحجام ، ومن هزيمة أو نصر . فلما نزلت
أنت في ملتطم الدنيا ، تخالط الناس ، وتمارس ما يمارسه أولئك
الأبطال ، لم يكن لك من حظ سوى الإخفاق .

خلفت لنا أبطال المال ، موفورة خبرتهم به ، وحسنكتهم
في تصرفه ، ولسكنك لما أردت أن تعالج هذه الشؤون ، خرجت
بصفقة المغبون !

ويا طالما جلوت لنا أبطال حب وهيام ، مفصيحاً عن سرائر
المرأة ، متغلغلاً في طواياها ، وإذا صبت نفسك إلى مطارحة
الغرام ، وقفت عاجزاً أمام تلك القلوب التي شغفتك حباً .
ترى ماعلة هذا التناقض بين الحالين في شخصيتك العجيبة ؟
أنت في عالمك الذي سوّيته بقلبك لم تسكن إلا إلهما ،
فكيف يمارس الإله أوضاع البشر ؟

للإله سماواته وعروشُه ، فأما الخلق فلهم دنياهم يتقلبون
في جنباتها كما يشاءون ، ويعانون من أوضاعها ما يعانون ...

كيف ينقلب الإله تاجراً من البشر ، يرضى لنفسه المما كسة
والممارسة ، ويخوض مع الناس مزالق الأخذ والعطاء ؟
وهل يليق بالإله أن يقارب ذلك الحب الأرضي ، فتعَلِّق
بأذياله تلك الصغار من غيرة أو مذلة أو إغراء ، على حين أنه هو
ذلك الإله العظيم الذي يَعْمُرُ قلبه الحب الرفيع المصنّف
للخلائق أجمعين ؟

عشتَ دائماً في عليائك ، تَسْبَحُ في فيض زاخر من الدور ،
يُعْشِي بوهجه الأبصار ، ولسكنه يزيدك تألقاً ونفاذ بصر .
على أنك لم تكن تندسى هذه الأرض ، فجعلت ترسل إليها من
علي نظرات عطف وإشفاق ، ترعى بها من سوينتهم من
شخصياتك . وتستشف بها تلك النفوس التي جُبلت من ماء وطين !
لقد لبثت عمرك إلسها في ملسك وتك الأسمى ، نحسن خدق
شخصياتك ، وترسل بها تسعى على وجه الأرض . فإذا هي تدور
من حولك كما تدور الكواكب من حول الشمس . . .
أيها الزميل الكريم :

ما أجدرنا نحن الذين نعالج فن القصص في الشرق بأن نتخذك إماماً
بيننا وبينك ألفة حيوية ، ونجاوب مأوس .
ما إن نطالع لك شيئاً إلا تردّد صدهاء في وليجة نفوسنا ،

وكان لإحساسنا مَشَاراً . . .

ولعلك أنت أقربُ كتاب الغرب إلى ما هو أصيل في قلوبنا
من ميول ومنازع.

ما أشبه عصرك الذي شهدت به عصرنا الذي نعيش فيه هنا في
بلاد الشرق .

كان عصرك مهترجاًنا ، للرومانسية ، بلغت فيه الذروة ،
وأوفت على الغاية ، وتألق فيه الأمراء الرومانسيون ، : « هوجو » ،
و « دي فيني » ، و « جورج صاند » ، و « تيوفيل جوتييه » ، إلى نظرائهم
الاعلام . . . وفي مقدمة هذا الركب الحافل خَفَقَتْ خطاك ،
ولسكنك لم تشأ أن تسبق على غيرارهم ، رومانسي النزعة ، خالصاً
لذلك كل الخلوص ، أو بالأحرى لم ترض عبقريتك الفضة أن
تخضع لذلك الأفق وحده دون غيره من الآفاق .

رأيت « الرومانسية » ، إغراقاً في الذاتية ، وانطلاقاً إلى
المشائية ، وإرخاء لعنان التعبير عن الإحساس إلى الشأو
الأقصى ، فألفيت ذلك كله عائقاً لك عن الضرب في ميدان
أعمق وأعم ، فرجعت تحاول الفسكاك من قيود « الرومانسية » ،
لتتصل بعالم الواقع ، تفهم الناس كما هم ، لا كما تهوى نفس الكاتب
أن تراهم . فمزجت بين « رومانسيته » ، وواقع الحياة . فكان مزاجاً

طريفا أرسيت به قواعد مذهب جديد ، هو مذهب الفن القصصى
الذى استعلى فيما تعاقب من العهود والأعصار .

ونحن أهل الشرق يزخر ميراثنا من الأدب العربى باللون
« الرومانسى » الزاهى ، وإن تأثرنا بهذا الميراث العتيق يجعلنا
نحيا فى عصرنا الراهن « رومانسين » أصلاء . ولكن الدنيا
من حولنا ترتقى فى معباب الحقائق الواقعة ، فأحاط بنا الموج
يدعونا أن نخوض الغمار ، وإذا بنا نتلفت التماساً لمن يعيننا
على مسامرة التيار ، فلم نجد أصدق منك عوناً ، وأهدى سبيلاً .
نحن قوم لا نستطيع أن نجافى نَسَبنا العريق فى الرومانسية ،
ولسكننا مع ذلك لا نملك التخلف عن ركب التطور الأدبى الذى
انتهى إلى المذهب الواقعى . فسكننا أحوج ما نكون إلى الخطّة
الوُسطى ، فوجدنا فيك مثالهما ، إذ أشربت « الرومانسية »
روحاً من « الواقعية » ، فازدهر من بينهما نباتٌ جديد . . .
أيها الزميل الكريم :

لما كنت بظهور الغيب تُجسّس ما سيكون من
الفتنة لك ، وانجذابنا نحوك ، فعبّرت لنا عن استجابتك لهذه
الآلفة وذلك الانجذاب ، إذ جعلت من نفسك أخاً روحياً
« لهرون الرشيد » رمز الطابع الشرقى فى أزهى عصوره .

حقا كان عهدك عهدَ تطلع الى الشرق ، وتشوُّف إلى اكتناه
سحره الخلاب . . ولا ريب أنك عبيت من أساطيره ما وسَّعك
أن تعُبَّ ، ولعلك التهبت شوقا إلى الحياة الشرقية بما حمله إليك
من تراث الشرق رجال « نابليون » بعد عودتهم من أرض النيل .
عرفناك متعشِّقا « لنابليون » ، تتقصَّى أخباره وشئون أبطاله ،
فهل استهواك مملوكه « رُستَم » ، في لبُّوسه المزركش ، وشارته
الطريفة ، وخصائمه الشرقية المتألقة ؟

وهذه البعثات المصرية التي نزلت يومئذ بلادك ، وعاشت
ردحا من الزمن بين مؤا طنيك ، أكبرُ ظنى أنك قد ملأت منها
عينك ، وأرغيتَها سمعك ، وفتنك من طريف أخبارها
وعجيب شخصياتها ما فتئتكَ .

أيها الزميل الكريم :

لقد تميزت بين كتاب الغرب بتلك المسحة الشرقية التي
تجلت فيك ، ولم ينس لك الشرق هذه الوشيحة . وإذا لم يتمثل
وفاءه لك في نقل معظم آثارك إلى العربية ، فإن أهل الشرق
طللاء عاون إليك في اغتلك ، يقرءون لك مفتونين بما كتبت ،
ولعلمهم يؤثرون الاستمتاع بروائعك في تلك اللغة التي تحمل
ألفاظها قوة رُوحك في منبعاها الفيض ، وحرارة فنك في
جوهره الأصيل !



قصة "حافظ"

لا جدال في أن «حافظا» الشاعر قد نبه ذكره على «حافظ»
 «النائر» ولكن نثره - وإن كان في الواقع أقل روعة من شعره -
 قد احتفظ - بالرغم من ذلك - بمكانة عالية في الأدب العربي
 الحديث . يشهد لذلك ثلاثة أعمال له ، الأول : رسائله التي كان
 يتبادلها هو وإخوانه الأدباء . وهي على قلة ما وصل إلينا منها تدل
 على مبلغ عنايته بالتعبير عن أفكاره الخاصة في أسلوب عال جميل .
 وربما جاء من يكشف لنا الغطاء عن هذه الناحية المجهولة من
 حياة «حافظ» . والثاني : رواية «البؤساء» التي ترجمها بتصرف
 كبير عن «فيكتور هيجو» ، في حُلَّة عربية قشبية تُختم ذى
 بلاغتها . والثالث : «سطيح» . وهو كتاب قصص من مبتكرات
 فكره ، طبع في سنة ١٩٠٦ . وهو موضوع هذا الحديث .
 نرى مما تقدم أن «حافظ» إبراهيم ، قد خصَّ الفن القصصي

بمجهود يُذْكَر في نثره ما بين ناقل ومؤلف ، فإذا أضفنا إلى ذلك
 عملين لهما خطرهما في ديوانه ، وهما : « العُمَرِيَّة » و « جريج بيروت »
 وجدنا أن مكانة « حافظ » ككاتب قصص في أدبنا العربي
 الحديث لا يستطيع أن يشكرها أحد ، و « العُمَرِيَّة » قصيدة من
 نوع الملاحم ، روى لنا فيها سيرة « عُمَرَ بن الخطاب » وما أثره .
 و « جريج بيروت » قطعة تمثيلية قصيرة تحدث فيها عن المأساة التي
 وقعت في « بيروت » عندما هاجمها الأسطول الإيطالي في حرب
 « طرابلس » .

ولما كان الوقت لا يتسع أمامنا للتكلم عن جميع ما أثره القصصية
 رأينا أن نقصر حديثنا على عمل واحد له ، هو « سطيح » .
 و « سطيح » في نظرنا يعبر أدق تعبير عن مجهود « حافظ » في
 فن القصة النثرية .

ولا بد لنا قبل الكلام على « سطيح » ، أن نأتي بمقدمة عن
 القصة في عصر « حافظ » ، وقبله بقليل .

كان من ما أثر عصر النهضة — الذي يمكن تحديده تحديدا عاما
 بدخول الفرنسيين « مصر » — أن ظهرت أخيرا القصة العربية
 الحديثة . وواجب الإنصاف يقضى بأن نقرر أن الأذهان في

« سورية » تهيأت لمعالجة القصة قبلنا على أثر قدوم الإرساليات الدينية الإفريقية وتشبيدها المدارس والجامعات مقدمة إلى أدباء « سورية » لونا طريقا من الأدب الأوربي الجديد. فأول من كتب في القصة الحديثة إخواننا السوريون . وكان العاهل الأكبر « محمد علي » قد أولى العلوم والصناعات عنايته ، فأرسل مختلف البعث إلى « أوربة » ، فلما عادت تلك البعث نشطت الحركة العلمية في « مصر » ، وخلقت جوا جديدا للنهضة علمية عملية . وكان للأدب نصيب في تلك النهضة ، ولكنه لم يكن بالكبير . فلما تولى « إسماعيل » العظيم ، وشمل الأدباء برعايته ، وخصهم بوافر عطاياءه ، ازدهرت الحركة الأدبية وأينعت ، وظهر من أرباب الأقلام فوج جديد بالذكر والاعتبار . أضف إلى ذلك نزوح فئة من أدباء السوريين إلى « مصر » أرادوا أن يختموا في ظل « إسماعيل » وينالوا من خيره . وكان احتكاك الشرق والغرب في ازدياد ، وهم « إسماعيل » الأكبر أن يصل بين الحضارتين ، ويجعل من « مصر » ذروة في جبين الشرق العربي تمثل ثقافة الغرب ومدنيته . وسرعان ما رأينا القصة ترفع هامتها على أكتاف طائفة صالحة من المترجمين والمؤلفين .

ولما كانت الثقافة العربية القديمة ما زالت متمتعةً بنصيب وافر من السلطان ، أراد بعضُ القَصَصِيِّين أن يوفقوا بين القصة الغربية والقصة العربية ، التي هي من الفن القصصى الحق في حالة بُدائية ، فكان نتاج ذلك شيئاً يماثل المَقَامَة . والمقامة في ذلك العهد كانت تمثل القصة العربية في الأدب العالى الرفيع ، لسموها لغةً وأسلوباً عن قصص العوام ، أمثال « أمشال » و « عنتر » و « أبي زيد الهلالي » وما ما ذلهما . وإن كنا نعتبر هذه القصص العامية طريفة من ناحية الخيال والحوار اللذين هما من أصول القصة في معناها الكامل . وقد سبق أن عالج هذا التوفيق بين القصة الغربية والقصة العربية « محمد المؤيد يحيى » في كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

ولكى نفهم « سَطِيحاً » ، حق الفهم ، يجب أولاً أن نتأمل معنى المَقَامَة . فالمقامة هي المجلس يجتمع فيه الناس حول محدث يتنقل بهم في مختلف الشؤون من علم وأدب وقصص وسير . وهذا المحدث في الغالب من الأدباء المستجدين يتكلم بلغة فصحي ظاهر فيها التعمُّل والصناعة اللفظية . و « الهمداني » من أشهر كُتَّاب المقامات . كتابه مجموعة حكايات قصيرة مسجوعة انتزعها من الحوادث التي وقعت له أو شاهدها أو تخيلها أثناء رحلاته الكثيرة

في بلاد خراسان ، وما جاورها . وقد نسب روايتها إلى رجل سماه « أبا الفتح الإسكندري » ، يمثل شخصية الأديب المستجدي في ذلك العصر . ويظهر أن استجداء الأدباء كان أمراً ذاتياً . وكانت حيلهم معروفة لدى « بديع الزمان » . وقيل إن شخصية « أبي الفتح الإسكندري » لم تكن غير شخصية « بديع الزمان » نفسه . والشاب « بينهما تام من ناحية الاستجداء بالأدب وكثرة الارتحال من بلد إلى بلد . والمقامة تلتهم دائماً بعبرة أو موعظة أو نكتة . وغايتها قبل كل شيء التفنن في أساليب الإنشاء وتضمين الأمثال والحكم ، و« سرد » الطريف من الأوصاف . فلم يكن للفن القصصي فيها شأن يذكر . وهي باختصار مقال منمق في مختلف الموضوعات على صورة فكهة مسلية .

وفد نشأت المقامة في الأدب العربي من تأثر الحياة العربية وآدابها بحياة الفرس وآدابهم . واشتهرت طائفة من كتاب ذلك العصر بالترجمة من الفارسية . ومنهم « بديع الزمان » نفسه .

ولننعد الآن إلى « سطيح » ، فنقول إنه كتب على نمط المقامات ، تأثر فيه « حافظ » بما كتبه « المولاي » ، في حديثه « عيسى ابن هشام » . وهذا التأثر الشديد يبدو واضحاً في الوضع الذي عالج فيه « حافظ » ، نواحي « سطيح » ، بل لقد بلغ تأثره بذلك

الكتاب أن أورد في مؤلفه فصلا كاملا مما كتبه « المويلحي » في حديثه . وهو الفصل الخاص بحديقة الحيوان التي كانت فيما مضى قصرًا ومُتَنَزَّهاً ، لإسماعيل ، . ولم يُسَمَّ لنا « حافظ » بطله ، بل تَعَتَّه بأحد أبناء النيل ، مع أن « المويلحي » استعار من كتاب « الهمداني » اسم « عيسى بن هشام » .

و « سَطِيح » ، مجرعة قصص يرويها أحد أبناء النيل ، وهي ليست قصصاً بالمعنى الذي نفهمه الآن من القصة . ويصح أن نعتبرها حوادث أو مشاهدات تكاد تكون كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولكنها على الرغم من ذلك تحمل طابعاً واحداً ، ولا سيما في طريقة سرد القصة وأسلوبها . ولها بطلان مهمان : الأول : الراوى نفسه ، وهو أحد أبناء النيل كما أسلفنا القول . والثاني : « سَطِيح » .

أما شخصية الراوى فهي شخصية أديب بائس من رؤاد الإصلاح يرثي لأمته مما تعانیه من متاعب في الأدب والسياسة والاجتماع . فينقُد أحوالها ويُنسِجُ باللائمة على أهلها في لهجة صريحة قاسية . وقد وصفه « حافظ » في الكتاب على لسان « سَطِيح » فقال : « أديب بائس ، وشاعر يائس ، دَهَمَتَهُ الكوارث ، ودَهَشَتَهُ الحوادث ، فلم تجد له عزماً ، ولم تُصِيبْ منه حملاً » .

وهو يَعْنِي نفسه بلا مرأه .

أما شخصية « سَطِيح » فهي شخصية حكيم صالح ، وقد أتى به المؤلف ، ليكون حَسْماً عادلاً ، فيما يعرضه عليه الراوى وزملاؤه من قضايا العصر ، اجتماعية كانت أو أدبية ، فينطق بالقول الفصل ، فالراوى يعرض القضية ، و « سَطِيح » يحكم فيها . والراوى هو الذى يرتاد الأماكن ، ويلقى الناس ، فيشاهد وينقُد ويناقش ، فيفصح لنا عما يحدث فى صدره من آلام وآمال

ولما كان « المُوَيْلِحِي » قد اختار بطله من بين شخصيات العرب الروائية ، أراد « حافظ » أن يحدِّدَ وَحْدَهُ فى اختيار البطل الذى سُمي به كتابه . فعاد إلى عصر الجاهلية يبحث بين دفائنه ، فعثر على كاهن صالح من العَرَّافين ، يُدعى « سَطِيحاً » ، هو أقرب إلى شخصيات الأساطير منه إلى الشخصيات الحقيقية ، اسمه « رَبِيع بن ربيعة الذَّيْبِي أو الذَّيْبِي » ، ولقب بـ « سَطِيح » ، لأنه كان سَطِيحاً أى لا عظم له ، لا يستطيع الوقوف أو المشى . فإذا أرادوا نقله ، طَوَوْهُ طَيَّ الحَصِير . ولم يسكن له رأس ولا عنق ، ولكن وجهه فى صدره . وقد تسكهن بفتح الحدة لليمن ، وبظهور الإسلام . ويقال إنه مات فى السنة التى ولد فيها النَّبِيُّ ، وولد فى السنة التى انهار

فيها « سدُّ مأرب » ، عندما طغى عليه « سيل العرم » . أى عُمَرَ
نحو ستمائة سنة .

ومن الفائدة أن نأتى بمثال من كلامه ، فقد ذهب إليه
« عبد المسيح بن عمرو الغساني » من قبَل ملك الفرس ؛ ليستطلعَه
رأيه فيما وقع « لسكسرى » ، يوم ولادة النبي من خمود النيران ،
وارتجاج الإيوان ، فلما رآه « سطيح » ، وكان يلفظ نفسه الأخير ،
قال : « عبد المسيح » ، على جمل مُشِيح ، وافتى إلى « سطيح » ، وقد
أشْفَى على الضريح ، بعثك ملك « ماسان » ، لارتجاس الإيوان ،
وخمود النيران ... الخ ،

وهذا الأسلوب يدلنا على أنه من وَضَع المتأخرين ، تقليداً
لسجع الكُتَّان ، إذ ليس فيه من بلاغة الجاهلية شيء .
وقد وجدنا « حافظاً » ، يُنْطِيق « سطيحه » ، في كتابه بهذا
السجع ، ولكن في ألفاظ منتقاة ، وأسلوب حسن .

ونحن إذا ألقينا نظرة إجمالية على الكتاب ، وجدناه قد جمع
بين دفتيه الكثير مما كانت تتحدث به الصحف عن شخصيات
ذلك العصر ، وما تعالجه من الموضوعات الشائعة في ذلك العهد .
فهو سجل مهم يمثل لنا مظهرَ آ من حياة مصر ، في حقبة من
تاريخها . وهو يمثل في الوقت نفسه جانباً من حياة « حافظ » ،

ونفسيته . فقد كتبه في الفترة التي تلت خروجه من الجيش ، وعودته
من « السودان » ، على أثر اتهامه بالاشتراك في الحركة الثورية التي
يسمونها في كتابه بحادث الذخيرة ، وقد وقع هذا الحادث في
الجيش المصري ، بعد إخماد الثورة المهديّة ، واستعادة « السودان »
هذه الفترة من حياة « حافظ » التي تَلَمَّتْ خروجه من الجيش
عانى فيها من شَطَف العيش الشد السَّكْثِ . فرأيناه في كتابه
موتوراً ساخطاً على الحياة ناقماً على انحلال الأخلاق ، قاسياً في
الحكم على أهل وطنه ، شديد الوطأة على المحتلين وأعوانهم ، يملأ اليأس
فراغ قلبه ، فلا يجد أمامه ملجأً يحتمى فيه غير الفضيلة والدين .
فظهر بمظهر المصلح الحكيم ، ينثر المواعظ والحكم في سخاء كبير .
هذا الجانب من حياة « حافظ » ، وهو جانب الرجل الناقم
والمصلح الواعظ ، نجده واضحاً في شعره أيضاً . ويكاد يكون
لكل موضوع عالج في كتاب « سَطِيح » ، نظير له في منظوماته .
ولكن ديوانه أوسع مدى ، فقد تناول جوانب أخرى من حياته ،
لا يجدها في « سَطِيح » ، كغرامه بالشراب . أما الحب فلم يفصح
« حافظ » عنه لا في « سَطِيح » ، ولا في ديوانه . والظاهر أن حياته
كانت خالية من المغامرات الغرامية ، أو أنه لم يتأثر بالحب إلى الحدِّ
الذي يدفعه للتعبير عنه نظماً أو نثراً .

أما موضوعاته التي طرقها في الكتاب فكثيرة ، نأتى بالمهم منها فنقول :

لقد تكلم عن تحرير المرأة ، وتصدى للدفاع عن « قاسم أمين » . ثم أخذ يتحدث عن إخواننا السوريين ، فذكر مناقبهم ، وعدّد أفضالهم على اللغة العربية . ونسب لهم بجانب ذلك بعض هنات بحسب رأيه . ثم يأتى دور الامتيازات الأجنبية ، فيقول فيها : « مادام امتياز الأجانب ، فلغير المصرى عزة الجانب . الرومى يطعن بمدية ، ويستظل بعلم دولته ، والمصرى يحمل القتل ، ويخضع خضوع الذليل » .

وقد تحدّث عن الصحافة ، فذكر صحافة السوء بالسوء ، وقال على لسان أحد الصحفيين شاكيا : « فأنت اليوم بين أمرين : إما الفضيلة والنّعش ، وإما الرذيلة والعيش » .

ثم يتكلم عن « شوقي » فينقّده في غير رحمة ، ثم يدافع عنه ، دفاع المستضعف . ويترك الحكم أخيرا إلى « سطيح » ، فيقول : « لو نه مُنْجَح من دقة المبانى ، مامنح من رقة المعانى ، فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلّق ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافع ، وواحدكم غير منازع » .

هذا رأى « حافظ » فى « شوقى » فى ذلك العهد ، والظاهر أنه كانت بين الشعراء منافسة أدت إلى شىء من التباغُض . وقيل : إن « حافظا » كان يطمع فى التقرب إلى العرش ، وإلى دار الخلافة ، فلم يمكنه « شوقى » من ذلك لمساكنته فى القصر الخديوى ، وصلته برجال الحكم من العثمانيين .

ثم رأيناه يتكلم بالخير كل الخير ، عن الإمام « محمد عبده » ، والزعيم « جمال الدين الأفغانى » . فيقول عن صلة الإمام بالإنجليز : « كم زحزح عنا حادثا ، ودفع كارثا ، ولو كان حيا يوم دار الفلك لنا بالنعوس فى « دنشواى » ، لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص . . . »

ولا ينسى الجامعة المصرية ، فهو يبحث المصريين ملحا متحمسا على بذل الأموال فى سبيل إنشائها ، ولما كانت ثورة « السودان » سببا فى خروجه من الجيش ، فقد رأيناه يخصصها بثلاثين صفحة من كتابه ، مع أن الكتاب كله لا يزيد على مائة وخمسين صفحة ، وفى حديثه عن الفتنة يسهب فى وصفها منددا بالخيانة ، متحدثا عن بعض الشخصيات الكبيرة من الإنجليز ، منتقدا سياستهم أشد انتقاد ، ويعقب على هذا بحديث عن المعتمد البريطانى « اللورد كرومر » ، والسياسة الإنجليزية فى القطر المصرى . وهو (١٥)

يخصص لها أكثر من عشرين صفحة . وفي هذا الفصل ينقل للقارى مقالاً بأكمله للشيخ « على يوسف » نشره فى « المؤيد » ، عنوانه : « السياسة الضعيفة العنيفة » ، مغزاه أن المحتلين اضطروا إلى استعمال العنف ، ليستروا وراءه ضعف سياستهم ، فالإنسان إذا ضعف فى الحجة والرأى ، لجأ إلى القوة والعنف ، وهو لا يُغْفَل فى هذا الفصل حادث « دانشواى » المعروف . و « حافظ » ، إذا تكلم فى السياسة وجدناه عنيف القول ، صريح الرأى ، غير مُدَّاج ولا مُحَبَّاب ، وهو الوطنى المتطرف ، الذى لا يطيق الذل لآبناء وطنه .

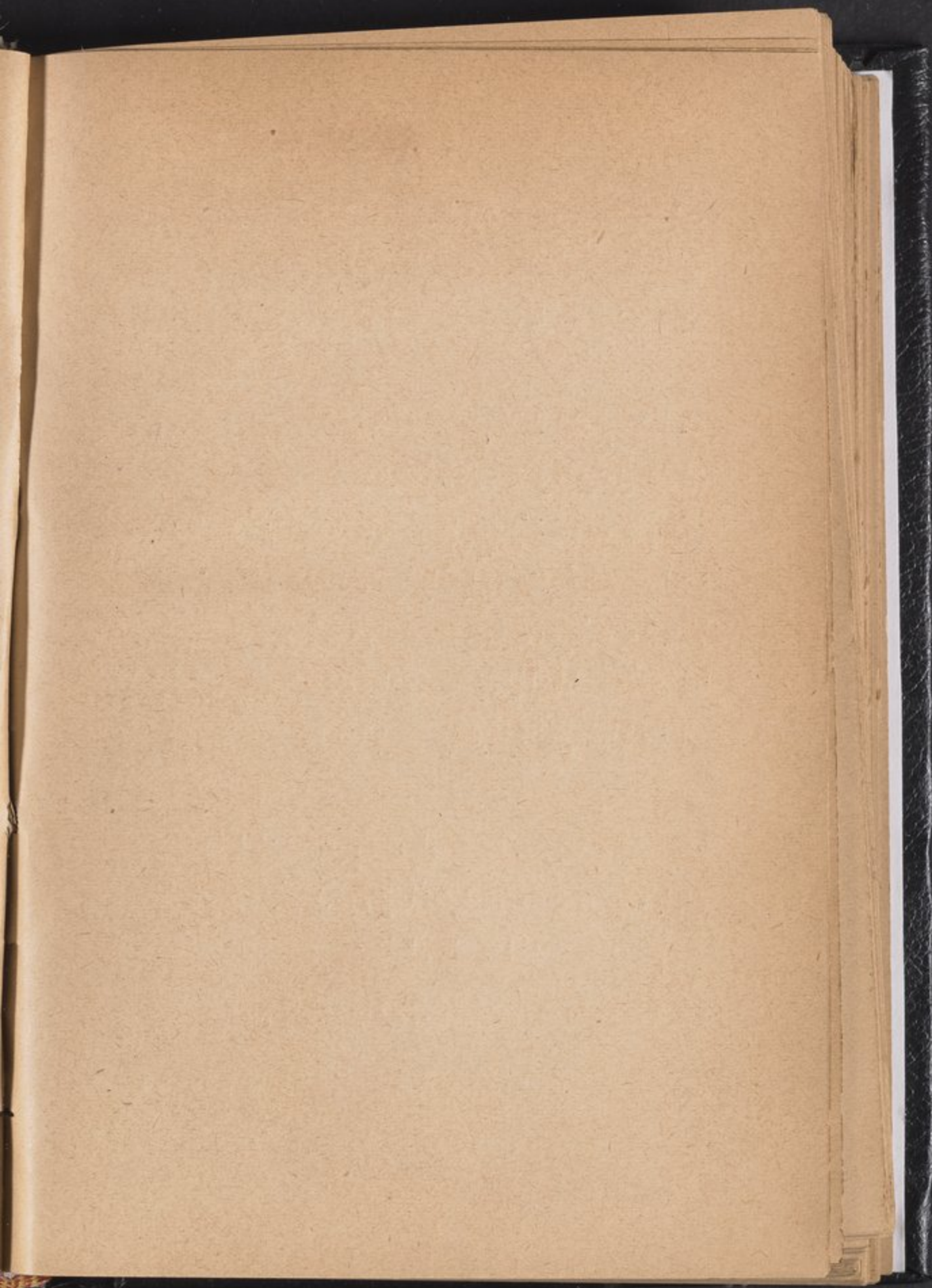
وفى الكتاب بضع صفحات لطيفة ، فى وصف الطبيعة والتيل والأسواق المصرية ، وشيخة الزار ، والراقصة ، وما شابه ذلك . فعن شيخة الزار يقول : « تدخل على المقصورات فى القصور ، والمخدورات فى الخدور ، فتفتق بطلها طبل آذانهم ، وتهز بأسماء الجن نواعم أبدانهم ، وتعمى بدخان البخور بُجُل أعينهم . . . » وحسبنا ما قلناه عن موضوعات الكتاب ، فهو على الجملة صدى لنفسية « حافظ » ، ومراة صادقة لعصره .

أما إذا أردنا أن نوازن بينه وبين زميله « حديث عيسى بن هشام » ، فنلخص الرأى فى كلمتين : « بينما نرى « المويلحي » يحاول الارتفاع

بكتابه عن المقامة ، والدنو من القصة الفنية ، بما يرسنه من شخصيات
ناضجة ، ويصوره من وقائع شائقة ، نرى « حافظاً » متمسكاً بالمقامة
لا يخرج عن إطارها ، فهو لا يُعنى في قصته بالناحية الفنية عنايته
بالناحية الخطائية والوعظية .

أما لغة الكتابين ففصيحة ، تسير على النمط القديم ، سلسلة
خالية من التعقيد والألفاظ المهجورة . تقرأها فيخيل لك أن
المتحدثين يختاران ألفاظهما ، وينظمانها حبة حبة ، كما يتخير
الجوهرى حبات ماسيه ، وينظمها في عقد ثمين . غير أننا
نرى « المويلحي » يتبسط في أسلوب حوار ، ويخجل له جدلاً
طبيعياً ، فتأتي جملة نابضة بالحياة ، تحمل طابعاً محلياً ، في حين أننا
نرى « حافظاً » شديد العناية بلغته من البداية حتى النهاية ، تغلب
على أسلوبه لهجة البداوة العربية .

هذا ولما كان « سطيح » قد ظهر في وقت لم يكن فيه للقصة
نصيب وافر ، ومقام يذكر ، فإننا نعتز « لحافظ إبراهيم » بفضل
السبق إلى المساهمة في وضع أساس القصة الحديثة .
وفي هذا من التجديد ما فيه .



فهرسى

صفحة		صفحة	
١٠٧	فكرى أباطه	١	استقبال لمعالى الدكتور طه حسين بك
١١٧	أنطون الجميل	١٧	الفنان فى صورة ملك
١٢٧	الشيخ أبو العيون	٢١	أبو الهول يناجى القاهرة
١٤١	اسماعيل تيمور	٣٣	أحمد لطفى السيد ✓
١٤٩	بشر فارس	٣٩	عبد العزيز فهمى
١٥٧	زكى طليمات	٥٥	طه حسين ✓
١٦٩	نجيب الريحانى	٦٥	الدكتور هيكل ✓
١٨٩	إلى « موباسان »	٨١	منصور فهمى
١٩٩	إلى « بلزاك »	٩١	أحمد أمين ✓
٢١٥	قصة « حافظ » ✓	٩٩	العقاد والمازنى ✓

أحدث مؤلفات

محمود نبور

أبو الهول يطير
سلوى في مهب الريح
خلف اللثام
كليوباترة في خان الخليلي
نداء المجهول
مكتوب على الجبين
سهاد
قال الراوى
قنابل
فن القصص
بنت الشيطان

كل عام وأنتم بخير
اليوم خمير
إحسان لله
حواء الخالدة
شفاه غليظة
عطر ودخان
فرعون الصغير
عوالى
المنقذة
أبو شوشة
المنجى رقم ١٣

